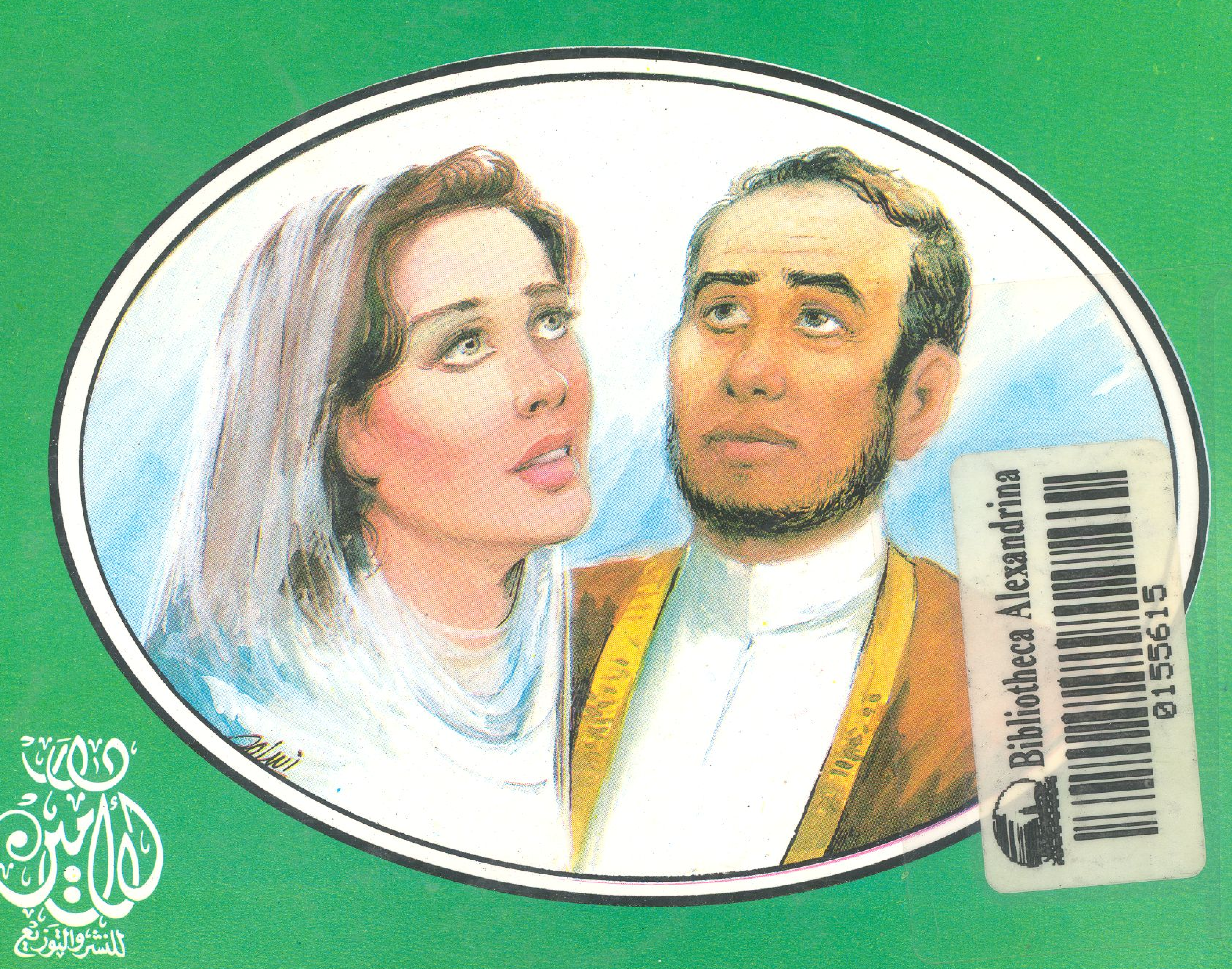
سيد صديق عبد الفتاح

موسوعة أسرار العشق
في التاريخ والادب

العشق في آراء

الفلاسفة والحكماء



دار الأمين للنشر والتوزيع

العشق في آراء الفلاسفة والحكماء

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا
مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع • نشر • توزيع

القاهرة : ١٠ ش بستان
الدكة من ش الألفى
(مطابع سجل العرب)
تليفون : ٩٣٢٧٠٦
ص.ب : ١٣١٥
العتبة ١١٥١١

الجيزة : ١ ش سوهاج
من ش الزقازيق خلف
قاعة سيد درويش بالهرم

٨ ش أبو المعالى (خلف
مسرح البالون) العجوزة
تليفون : ٣٤٧٣٦٩١
ص.ب : ١٧٠٢
العتبة ١١٥١١

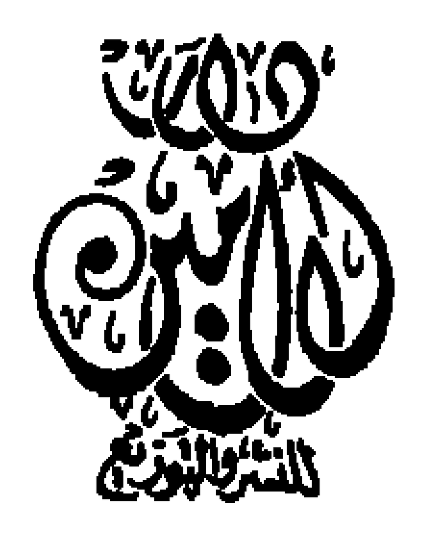
الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

رقم الإيداع ١٩٩٥/٢٠٧٠
I.S.B.N.
977-5424-93-3

موسوعة أسرار العشق
في التاريخ والادب

العشق في آراء الفلاسفة والحكماء

تأليف صديق عبد الفتاح



بسم الله الرحمن الرحيم

(مقدمة الكتاب)

*** عزيزى القارئ ..**

هل العشق ـ حقيقة ـ يفصح الفتى ويذكيه .. ويجعل البخيل كريماً .. ويحث على التنظيف ، وجمال الملبس ؟ .

هل العشق يبعث على الفخر ، والثقة ، والبطولة ، والشجاعة ؟ .

هل العشق داعية لأن يهيم له المرء على وجهه ؟ .. أو يموت الإنسان كمداً على فراشه منه ؟ .

هل إذا تأملنا الدنيا .. نجد أكبر نعيمها ، وأكمل لذاتها فى فوز المحب بحبيبه ، والعاشق بطلبته ؟ .

هل إذا عشق الإنسان امرأة يرى جبينها مشرق النور المتلألىء .. وينظر عينيها مسكن السحر والخيال .. ويخال فمها مكمن السكّر المسكر .. ويحس خديها منبت الشهد وعذوبته .. ويشعر فى قربها بنشوة الحب ولذة الهوى ؟ .

*** عزيزى القارئ ..**

ستتعرف على آراء الفلاسفة والحكماء فى كل ما ذكرت لك وغيره ، وسنرى ما قال « **ذو الرياستين** » و « **الجاحظ** » و « **عروة بن الزبير** » و « **الرازى** » و « **أفلاطون** » و « **ابن سينا** » و « **ابن زيدون** » و « **إخوان الصفا** » و «**السهروردى**» و « **ابن العربى** » و « **ابن الفارض** » .. وغيرهم ..

سنتعرف على كافة صنوف العشق وفروعه ، وآثاره وأثره فى نفوس البشر ، وما يوحيه من روائع القول وبدائع الفكر حتى عند عامة الناس .. فإن تاريخ الإنسانية كثيراً ما يحفل بمآثره ونوادره ..

« سيد صديق عبد الفتاح »



العشق في آراء الفلاسفة والحكماء

(العشـق .. يفعـل هـذا)

* كان « ذو الرياستين »[1] ـ (١٥٤ - ٢٠٢ هـ / ٧٧١ - ٨١٨ م) - يبعث أحداث أهله إلى شيخ يعلمهم الحكمة ، فقال لهم يوماً :

- « هل فيكم عاشق » ؟ ..

قالوا : « لا » ! ..

قال : « اعشقوا ، وإياكم والحرام .. فالعشق يفصح الفتى ويذكيه ، ويسخّي البخيل ، ويبعث على التنظيف ، وتحسين الملبس » ..

فلما انصرفوا ، قال لهم « ذو الرياستين » : ما استفدتم اليوم ؟ .

قالوا : كذا .. وكذا ..

قال : نعم .. وإنما أخذه مما رُوِى أن « بهرام جور » كان له ابن أهَّلَهُ للمُلْك بعده ، وكان ساقط الهمة ، ردئ النفس ، سيئ الخُلُق .. فغَمَّهُ ذلك ، ووكَّل به من يُعَلّمه .. فلم يكن يتعلم ..

فقال معلمه : كنا نرجوه على حال ، فحدث منه ما أيأسنا وهو أنه عشـق (بنت المرزبان) .

فقال : الآن رجوت فَلاحه ..

---

(١) ذو الرياستين ، الفضل بن سهل بن يزدا نفروخ (السرخسى ولادة ووفاة) أبو العباس وزير المأمون .. لُقِّبَ بذى الرياستين لتوليه رئاسة الجيوش ، ورئاسة الدواوين ـ فجمع بين الوزارة والحرب .

« ثم دعا أبا الجارية ، فقال : إنى مُستسر إليك سراً ، فلا يعدونك .. إعلم أن ابنى عشق ابنتك ، وأريد أن أزوجـها منـه .. فَمُرْهَـا بأن تطمعـه من غير أن يراها .. فإذا استحكم طمعه فيها ، أعلمته أنها راغبة عنه لقِلّة أدبه .

« ثم قال للمعلم : خوِّفه بى ، وشجعه على مراسلة المرأة ..

ففعلت المرأة ما أُمرت به ..

فقال الغلام فى نفسه : أنا أجتهد فى تحصيل ما أصل إليها به ..

فأخذ فى التأدب ، وتعلّم الشجاعة .. ثم قال أبوه للمؤدب : شجِّعه على أن يرفع أمرها ، ويسألنى أن أزوجها منه ..

ففعل .. فزوجها من ابنه ..

وهكذا .. نرى العشق يبعث على الفخر ، والثقة ، والبطولة ، والشجاعة .

* * *

* رسالة « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ـ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ) فى :

(النســاء .. والعشـق)

١ ـ فصل

إنا لما ذكرنا فى كتابنا هذا الحب الذى هو أصل الهوى .

والهوى الذى يتفرع منه العشق .

و « العشق » الذى يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه .

وأول ذلك : إدخال الضَّيم (١) على مروعته ، واستشعار الذِّلة لمن أطاف بعشيقته .

ولم نُطنب ، مع ذلك ، فى ذكر ما يتشعَّب من أصل الحب من الرحمة والرقة ، وحُب الأموال النفيسة ، والمراتب الرفيعة ، وحب الرعية للأئمة ، وحب المُصطَنَع لصاحب الصنيعة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، ومع تفاوت طبقاته فى العواقب ، احتجنا إلى الاعتذار من ذكْر العشق المعروف بالصبابة ، والمخالفة على قوة العزيمة ، لنجعل ذلك القدر جُنَّةً (٢) دون من حاول الطعن على هذا الكتاب ، وسخَّف الرأى الذى دعا إلى تأليفه ، والإشادة بذكره ، إذا كانت الدنيا لا تنفك (٣) من حاسدٍ باغ ، ومن قائلٍ متكلف ، ومن سامع طاعن ، ومن مُنافس مُقصِّر ، كما أنها لا تنفكُّ من ذى سلامة متسلم ، ومن عالم متعلم ، ومن عظيم الخطر : حسن المحضر ، شديد المحاماة على حقوق الأدباء ، قليل التسرع إلى أعراض العلماء .

---

(١) الضيم : الظلم .

(٢) جنة : سترة .

(٣) لا تنفك : لا تسلم .

وإنما العشق اسمٌ لِمَا فَضَل عن المقدار الذى اسمُه حُبٌ .

وليس كل حب يسمى عشقًا ، وإنما العشق اسم للفاضل عن ذلك المقدار ، كما أن السَّرف اسم لِمَا زاد على المقدار الذى يسمى جُودًا ، والبخل اسم لِمَا نقص عن المقدار الذى يسمى اقتصاداً ، والجُبن اسم لِمَا قصر عن المقدار الذى يسمى شجاعة .

وهذا القول ظاهر على ألسنة الأدباء ، مستعمل فى بيان الحكماء .

وقد قال « عُروة بن الزبير » :(1) « **والله إنى لأعشق الشرف كما تُعْشَقُ المرأة الحسناء** » .

وذَكَر بعض النـاس رَجُلاً كان مُدقعًا محرومًـا ، ومنحوس الحظ ممنوعًـا . فقال : « **ما رأيتُ أحدًا عَشِقَ الرزق عِشْقَهُ ، ولا أبغضه الرزق بُغضه** » ! .

فذكر الأول عِشْقَ الشَّرف ، وليس الشَّرف بامرأة ، وذَكَر الآخر عشق الرزق ، والرزق اسم جامع لجميع الحاجات .

وقد يستعمل الناس الكناية ، وربما وضعوا الكلمة بدل الكلمة ، يريدون أن يظهر المعنى بألين اللفظ ، إما تنويهاً وإما تفضيلاً ، كما سمّوا المعزول عن ولايته : مصروفًا ، والمنهزم عن عدوه : مُنحازاً ، نعم ، حتى سَمَّى بعضهم البخيل : مقتصداً ومصلحاً ، وسُمِّى عامل الخراج : المتعدى بحق السلطان مستقصياً(2) .

ولما رأينا الحُبَّ من أكبر أسباب جماع الخير ، ورأينا البغض من أكبر أسباب الشر ، أحببنا أن نذكر أبواب السبب الجالب للخير ، ليفرق بينه وبين أبواب

---

(1) (ت ٩٣ هـ / ٧١١ م) .

(2) خقط : « يظهروا المعنى » .

السبب الجالب للشر ، حتى نذكر أصولهما وعلَلَهما الداعية إليهما ، والموجبة لكونهما .

فتأملنا شأن الدنيا ، فوجدنا أكبر نعيمها ، وأكمل لذاتها ، ظفر المحب بحبيبه ، والعاشق بطلبته .

ووجدنا شِقْوَة الطالب المُكْدِى [1] وغمه ، فى وزن سعادة الطالب المُنْجِح وسروره .

ووجدنا العشق كلما كان أرسخ ، وصاحبه به أكلف [2] ، فإن موقع لذة الظفر منه أرسخ ، وسروره بذلك أبهج .

فإن زعم زاعم أن موقع لذة الظفر بعدوِّه المُرصد أحسن من موقع لذة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته .

قُلنا : إنا قد رأينا الكرام والحُلماءَ ، وأهل السُّؤدد والعظماء ، ربما جادوا بفضلهم من لذة شفاء الغيظ ، ويعدُّن ذلك زيادة فى نُبْل النفس ، وبُعد الهمة والقدْر ، ويجودون بالنفيس من الصامت والناطق ، وبالثمين من العروض [3] ، وربما خرج من جميع ماله ، وآثر طيبَ الذِّكْر على الغنى واليُسر .

ولم نَرَ نَفْس العاشق تسخو بمعشوقه ، ويجود بشقيقة نفسه لوالدٍ ولا لولد بارٍّ ، ولا لذى نعمة سابغة [4] يخاف سلبها ، وصرْف إحسانه عنه بسببها .

ولم نَرَ الرجال يَهَبُون للرجال إلا مالا بالَ به، فى جنب ما يهبون للنساء، حتى كأنَّ العطر والصِّبغ ، والخِضاب والكُحل ، والنَّتْف والقص ، والتحذيف

(١) المكدى : القليل الخير .
(٢) الرجل أكلف بكذا : أى أولعَ به .
(٣) العروض : الأمتعة ، سوى الدراهم والدنانير فإنها عين ، واحدها عرض ، بالفتح .
(٤) السابغة : الكاملة الوافية .

والحلْق ، وتجويد الثياب ، وتنظيفها ، والقيام عليها ، وتعهُّدها ، مما لم يتكلفوه إلا لهن ، ولم يتقدموا فيه إلا من أجلهن ، وحتى كأن الحيطان الرفيعة ، والأبواب الوثيقة ، والستور الكثيفة [1] ، والخصيان والظؤورة [2] ، والحشو والحواضن لم تُتَّخذ إلا للصَّون لهن ، والاحتفاظ بما يجب من حفظ النعمة فيهن .

٢ ـ فصل منه

وباب آخر : وهو أنَّا لم نجد أحداً من الناس عَشِق والديه ولا وَلَده ولا من عشق مراكبه ومنزله ، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام .

قال الله تعالى :

﴿ زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المُقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث [3] ﴾ .

فقد ذَكَر تبارك وتعالى « جُملة أصناف ما خوَّلهم من كرامته ، ومَنَّ عليهم من نعمته ، ولم نَرَ الناس وجَدُوا بشيءٍ من هذه الأصناف وجْدَهم بالنساء ، ولقد قدَّم ذكرهن في هذه الآية على قدر تقدمهن في قلوبهم .

فإن قال قائل : فقد نجدُ الرجل الحليم ، والشيخ الرَّكين [4] ، يسمع الصوت المطرب من المُغَنِّي المصيب ، فينقله ذلك إلى طبع الصبيان ، وإلى أفعال المجانين ، فيَشُقُّ جيبَه ، وينقُض حُبْوَتَه [5] ، ويفدي غيره ، ويرقص كما يرقص الحدث الغرير ، والشاب السفيه ، ولم نجد أحداً فعل ذلك عند رؤية معشوقه .

(١) الستور : جمع ستر ، بالكسر .

(٢) الظؤورة : العاطفة .

(٣) الآية ١٤ من سورة آل عمران .

(٤) الركين : الثابت ..

(٥) حبوته : عطيته ..

قلنا : أما واحدة .. فإنه لم يكن ليدع التشاغل بشمّها وبرشْفها ، واحتضانها ، وتقبيل قدميها ، والمواضع التى وطئت [1] عليها ، ويتشاغل بالرقص المباين لها ، والصراخ الشاغل عنها .

فأما حل الحُبوة ، والشد حُضْراً عند رؤية الحبيبة فإن هذا مما لا يحتاج إلى ذِكْره ، لوجوده وكَثْرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خَلا بمعشوقه ، لا يظن أن لذة الغناء تشغله بمقدار العُشر من لذّته ؛ بل ربما لم يخطر له ذلك الغناء على بال .

وعلى أن ذلك الطرب مجتاز غير لابث [2] ، وظاعن [3] غير مقيم ، ولذة المتعاشقين راكدة أبداً ، مقيمة غير ظاعنة .

وعلى أن الغناء الحسن من الوجه الحَسَن والبدن الحَسَن ، أحسن ، والغناء الشهى من الوجه الشهى ، والبدن الشهى أشهى ، وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة .

وكم بيْنَ أن يُفَدّى إذا شاع فيك الطرب مملوكك ، وبين أن يفدّى أمتُك ؟ .

وكم بيْنَ أن يُسمع الغناءُ من فَم تشتهى أن تُقَبّله ، وبين فَم تشتهى أن تصرف وجهك عنه .

وعلى أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون ، فصاروا دخلاء على النوائح .

---

(١) وطئت : داست .

(٢) لابث : ثابت .

(٣) ظاعن : راحل .

وبعد ، فأيهما أحسن وأملح ، وأشهى وأغنج ، أن يغنّيك فحلٌ ملتفُّ اللّحية ، كَثُّ العارضَين ، أو شيخ منخلع الأسنان ، مغضّن الوجه ، ثم يغنّيك إذا هو تغنّى بشعر ورقاء بن زهير : (شاعر جاهلي) .

رأيتُ زهيراً تحت كلكلِ (*) خالدٍ فأقبلتُ أسعى كالعَجُول أبادرُ

أم تغنّيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خُرِطت من ياقوتة ، أو من فضة مجلوة ، بشعر عكاشة بن محصن [1] :

من كفِّ جاريةٍ كأن بنانَها من فضة قد طُرِّفَت عنّابا [2]
وكأن يُمناها إذا نطقت به ألقَتْ على يدِها الشّمال حسابا [3]

(*) الكلكل : الصدر .. أو مابين الترقوتين .

(1) كذا ، عكاشة بن محصن (١٢ هـ) صحابي لم يؤثر عنه شعر ، أنظر الاصابة ٥٦٢٦ ، وإنما الشعر لعكاشة بن عبد الصمد العمي البصري (١٧٥ هـ) ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الهاشمية . والبيتان بدون نسبة في الأمالي ١ : ٣٢٠ وحماسة ابن الشجري ٢٦٠ ونسبا في الأغاني ٢ : ٧٣ وسمط اللآلي ، ٥٢٦ ، وزهر الآداب ٦٠٩ ، ونهاية الأرب ٥ : ١١٤ إلى عكاشة العمي ونسبا في العقد ٦ : ٧٤ إلى عكاشة بن الحصين خطأ ، وقبلهما في سمط اللآلي :

هبوا فقد عذب النسيم وطابا والدهر يذهب بالنعيم ذهابا
حثوا على حسن الصبوح فقد نضا نور الصباح من الدجى جلبابا

وقبلهما في الأغاني ثلاثة أبيات هي والبيتان خمسة ، في صوت من المائة المختارة :

ياليلة جمعت لنا الأحبابا لو شئت دام لنا النعيم وطابا
بتنا نسقاها شمولا قرقفا تدع الصحيح بعقله مرتابا
حمراء مثل دم الغزال وتارة عند المزاج تخالها زريابا

(2) يقال طرفت الجارية بنانها ، إذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء .

(3) في الأمالي وابن الشجري : « نطقت بها » . وفي نهاية الأرب : « نطقت به كما هنا . وفي العقد والزهر : « إذا ضربت بها » . وفي ب ، م : « على يده الشمال » صوابه في ط وحماسة ابن الشجري ، وفي جميع النسخ : « حبابا » وصوابه في جميع المراجع . وفي الأمالي والعقد ونهاية الأرب : « تلقى على يدها الشمال » ، وفي زهر الآداب : « تلقى على الكف الشمال » .

٣ - فصل منه

فأما الغناء المُطْرب فى الشّعر الغزِلْ ، فإنما ذلك من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنّى بأشعار الغزل والتشبيب ، والعشق ، والصبابة بالنساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شباب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى النسيب .

وبعد ، فكل شىء وطِبْقُه ، وشِكْله ولِفْقُه ، حتى تخرج الأمور موزونة معدَّلة ، ومتساوية مُخلصة .

ولو أن رجلاً من أدمث الناس وأشدّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسبة لنفسه ، ثم جلس مع امرأة لا تُزَنُّ بمنطق [١] ، ولا تُعرف بحُسن حديث ، ثم كان يعشقها ، لتناتج بينهم من الأحاديث ، ولتَلاقَحَ بينهما من المعانى والألفاظ ، ما كانَ لا يجرى بين «دَغْفَل بن حنظلة» [٢] ، وبين «ابن لسان الحُمَّرة» [٣] ، وإنما هذا على قَدْر تمكُّن الغزَل فى الرجُل .

---

(١) زنة بالخير أو بالمال ، أو بالعلم زنا ، وأزنه إزنانا : ظنه به .

(٢) و « دغفل » هذا هو « دغفل بن حنظلة بن زيد الشيبانى الذهلى النسابة الخطيب » أدرك الرسول الكريم ولم يسمع منه . غرق فى يوم دولاب فى قتال الخوارج سنة ٧٠ . الاصابة ٢٣٩٥ وابن النديم ١٣١ والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الاسلام للذهبى ٢ : ٢٨٧ ، وانظر أخباره وأقواله فى البيان والتبيين .

(٣) فى جميع النسخ : « وبين بشار بن الحمرة » ، والوجه ما أثبت ، و « ابن لسان الحمرة » هذا هو « عبيد الله بن الحصين » ، أو « ورقاء بن الأشعر » ، كما فى القاموس والمعارف ٢٣٣ ، وهو أعرابى من بنى تيم الله بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه ، قال ابن قتيبة : « وكان أنسب العرب وأعظمهم بصراً » دخل الكوفة وعليها المغيرة بن شعبة ، فسأله المغيرة عن طبائع قبائل من العرب ، وعن خلف النساء ، فأجاب أجوبة ممتعة ، سردها أبو الفرج فى الأغانى ١٤ : ١٣٨ .

٤ - فصل منه

والمرأة أيضاً أرفعُ حالاً من الرَّجل في أمور ، منها : أنها التي تُخْطَب وتُراد ، وتُعشق وتُطلب ، وهي التي تُفدَّى وتُحْمَى .

قال « عنْبسة بن سعيد [1] » للحجاج بن يوسف : أيفدِّى الأمير أهله ؟ .

قال : والله إن تعدُّنني إلا شيطاناً ، والله لربما رأيتني أُقبِّل رِجْلَ إحداهُنّ ! .

٥ - فصل منه

وإنما يملك المولى من عبده بدنه ، فأما قلبه فليس له عليه سلطان .

والسلطان نفسه ، وإن مَلَك رقاب الأُمة ، فالناس يختلفون في جهة الطاعة .

فمنهم من يطيع بالرغبة .

ومنهم من يطيع بالرهبة .

ومنهم من يطيع بالمحبة .

ومنهم من يطيع بالديانة .

وهذه الأصناف ، وإن كان أفضلها طاعة الديانة ، فإن تلك المحبة ما لم يمازجْها هوًى لم تَقْوَ على صاحبها قوة العشق .

وفي الأَثَر المستفيض والمَثَل السائر : « **إن الهَوَى يُعْمِي ، ويصُمّ فالعِشْقُ يقتُل** » .

---

(١) هو عنبسة بن سعيد بن العاص بن أمية ، كان من جلساء الحجاج ، كما في الاشتقاق ٧٩ وجمهرة ابن حزم ٨١ .

٦ - فصل منه

ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء : أن الرجل يُستحلَفُ بالله الذى لا شيء أعظم منه ، وبالمشى إلى بيت الله ، وبصَدقة ماله ، وعتق رَقيقه ، فيسهُل ذلك عليه ، ولا يأنفُ منه .

فإن استُحْلِفَ بطلاق امرأته .. تَرَبَّد وجهُه (١) ، وطار الغضب فى دماغه ، ويمتنع ويَعصى ، ويغضَب ويأبى ، وإن كان المُحْلِف سلطاناً مَهيباً ، ولو لم يكن يحبها ، ولا يستكثر منها وكانت نفسُها قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة الصَّداق ، قليلة النَّسب .

ليس ذلك إلا لما قد عظَّم الله من شأن الزوجات فى صدور الأزواج .

٧ - فصل منه فى ذِكْرِ الولد

وباب آخر : وهو أنا لو خيَّرنا رجلاً بين الفقر أيام حياته ، وبين أن يكون ممتَّعاً بالباه أيام حياته ، لاختار الفقر الدائم مع التمتع الدائم .

وليس شيء مما يُحدث الله لعباده من أصناف نعَمِه وضروب فوائده ، أبقى ذِكْراً ، ولا أجلَّ خطَراً ، من أن يكون للرجل ابن يكون ولىَّ بناته ، وساتر عورة حرَمِه ، وقاضى دينه ، ومُحيى ذِكْرِه ، مُخْلصاً فى الدُّعاء له بعد موته ، وقائماً بعده فى كل ما خلَّفه مقام نفسه .

فمن أقلُّ أَسفاً على ما فارق ، ممن خلَّف كافياً مجرَّباً ، وحائطاً من وراء المال موفراً ، ومن وراء الحرم حامياً ، ولسلفِه فى الناس مُحَبِّباً .

---

(١) تربَّد : أحمر حمرة فيها سواد عند الغضب .

وقال رجل « لعبد الملك بن مروان »[1] ، وقد ذُكِرَ ولد له : « **أراك الله فى بنيك ما أَرَى أباك فيك ، وأَرَى بنيك فيك ما أراك فى أبيك !** » .

ونظر شيخ وهو عند « المهلّب »[2] إلى بنيه قد أقبلوا فقال :

« **آنس الله بكم لاحِقكُم ، فوالله إن لم تكونوا أسباط نبوة . إنكم أسباط مَلْحمة** » .

وليست النعمة فى الولد المحيى ، والخلف الكافى ، بصغيرة .

٨ - فصل منه

وباب آخر : وهو أن الله تعالى خلق من المرأة ولداً من غير ذَكَر ، ولم يخلُق من الرجل ولداً من غير أُنثى ، فخصَّ بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل ، كما خلق « المسيح » فى بطن « مريم » من غير ذَكَرٍ .

٩ - فصل منه فى ذِكْرِ القرابات

وأما أنا فإنى أقول : إن تباغض الأقرباء عارض دخيل ، وتحابُّهم واطدٌ أصيل ، والسلامة من ذلك أعمّ ، والتناصر أظهر ، والتصادق فى المودَّة أكثر ، فلذلك القبيلة تنزل معًا ، وترحل معًا ، وتحارب من ناوأها معًا ، إلا الشاذ النادر ، كخروج « غنِّى » و « باهلة » من (غطفان) ، وكنزول « عبسٍ » فى بنى عامر ، وما أشبه ذلك .

وإلا فإن القرابة يد واحدة على من ناوأهم ، وسيف واحد على من عاداهم .

---

(١) خامس الخلفاء الأمويين (٦٤٦ ـ ٧١٥) .

(٢) (ت ٨١٢) قائد عربى .

وما صلاحُ شأن العشائر إلا بتقارب سادتهم فى القَدْر ، وإن تفاوتوا فى الرياسة والفضل ، كما قال فى الأثر المستفيض :

ـ « لا يزال الناسُ بخيرٍ ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلَكُوا » .

وحال العامة فى ذلك كحال الخاصة .

١٠ - فصل منه

وقضية واجبة : إنَّ الناس لا يُصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع شملهم ، ويكفيهم ، ويحميهم من عدوّهم ، ويمنع قويُّهم من ضعيفهم .

وقليلٌ له نظام ، أقوى من كثير نَشَرٍ [١] لا نظام لهم ، ولا رئيس عليهم ، إذ قد علم الله [٢] أن صلاح عامة البهائم في أن يجعل لكل جنسٍ منها فحلاً يُورِدها الماء ويُصدِرها ، وتتبعه إلى الكلأ ، كالعَيْر فى العانة [٣] ، والفحلِ من الإبلِ في الهجمة ، وكذلك النَّحلُ العَسَّالة ، والكراكيّ ، وما يحمى الفرسُ الحِصانُ الحُجورَ فى المُروج [٤] فجعل منها رءوساً متبوعة ، وأذناباً تابعة .

ولو لم يقِمِ الله للناسِ الوَزَعة من السلطان ، والحُماةَ من الملوك وأهلِ الحِياطة عليهم من الأئمة ـ لعادوا نَشَراً [٥] لا نظام لهم ، ومُستكلبينَ لا زاجر لهم ، ولكان مَن عزَّ بَزَّ [٦] ، ومَنْ قـدر قهر ، ولَمَا زال اليُسر راكداً ، والهرْج ظاهـراً ، حتى يكون التـغـابُنُ والبوَار [٧] ، وحـتى تنطمسَ منهـم الآثـار ، ولكانت

---

(١) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

(٢) ط : « الله سبحانه وتعالى » .

(٣) العانة : القطيع من حمر الوحش .

(٤) الحجور : جمع حجر ، بالكسر ، الفرس الأنثى ، ويقال فى جمعه أحجار وحجورة .

(٥) انظر للنشر ما سبق قريبا فى هذه الصفحة . ب : « نشزا » ط : « نشرا » صوابهما فى م .

(٦) ومعناه من غلب سلب . قاله جابر بن رألان السنبسى لما أقرع النعمان يوم بؤسه بينه وبين صاحبيه ، فقرعهما فخلى سبيله .

(٧) التغابن : أن يغبن القوم بعضهم بعضاً . ب : « التفانى » ، صوابه فى م ، ط .

الأنعـام طعاماً للسباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفسها ، جاهلةً بكثير من مصالح شأنها .

فوصَلَ الله تعالى عجزَها بقوة من أحوجَه إلى الاستمتاع بها ، ووَصل جهلها بمعرفة مَنْ عرف كيف وجه الحيلة فى صوْنها والدفاع عنها .

وكذلك فَرَض على الأئمـة أن يحوطوا الدَّهمـاء بالحراسـة لها ، والذِّياد عنْها [1] ويردَّ قويها عن ضعفيها ، وجاهلها عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيهها عن حليمها .

فلولا السائس ضاع المسوس ، ولولا قوة الراعى لهلكت الرعية .

١١ - فصل منـه

وانفراد السيد بالسيادة كانفراد الإمامة ، وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة ، وتكون الأُلفة ، ويصلح شأن الجماعة ، وإذا كانت الجماعة انتهت الأعداء ، وانقطعت الأهواء .

١٢ - فصل منـه

ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل : إن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة أو طبقتين ، أو بأكثر ، ولكنَّا رأينا ناساً يُزْرُون عليهن أشد الزِّراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن .

وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، فلذلك ذَكَرْنا جملة ما للنساء من المحاسن .

---

(١) الذياد ، والذود : الدفاع .

ولولا أن ناساً يفخرون بالجَلَد ، وقوة المُنَّة ، وانصراف النفس عن حُبِّ النساء ، حتى جعلُوا شدة حُب الرجل لأَمَته ، وزوجته وولده ، دليلاً على الضعف ، وباباً من الخوَر ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب .

١٣ - فصل منه

كما نحب أن يخرج هذا الكتاب تاماً ، ويكون للأشكال الداخلة فيه جامعًا ، وهو القول فيما للذكور والإناث في عامة أصناف الحيوان ، وما أمكن من ذلك ، حتى يحصِّل ما لكل جنسٍ منها من الخصال المحمودة والمذمومة .

ثم يُجمعَ بين المحاسن منها والمساوىء ، حتى يستبينَ لقارئ الكتاب نقصان المفضولِ من رجحان الفاضل ، بما جاء في ذلك من الكتاب الناطق ، والخبر الصادق ، والشاهد العدل ، والمثل السائر ، حتى يكون الكتاب عربياً أعرابياً ، وَسُنِّيًا جماعياً ، وحتى يُجتنَبَ فيه العويص والطُّرق المتوعِّرة ، والألفاظُ المستنكرة ، وتلزيقُ المُتكلفين ، وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين ، حتى نظرنا لمن لا يعلم مقادير ما استخزَنها الله من المنافع ، وغَشَّاها من البرهانات ، وألزمَها من الدلالة عليه ، وأنطقها به من الحُجَّة له .

فمنع من ذلك فرط الكبوة [1] ، وإفراط العِلّة ، وضعفُ المُنَّة ، وانحلال القوة .

فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال ، وألفى قلوبَنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصِد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة .

فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به ، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها ، وتبعُد غايتها .

---

(١) في جميع الأصول : « الكبوة » ، وجهه ما أثبت .

فرأينا ، والله الموفق ، أن نقتصر منه على مالا يبلغ بالمستمع إلى السآمة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدْر .

وليس ينبغي لكتُب الآداب والرياضات أن يحمل أصحابُها على الجِدّ الصِّرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المُرّ ، وعلى المعانى الصعبة ، التى تَستكِدُّ النفوس ، وتستفرغُ المجهود .

وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية .

ولا بأس بأن يكون الكتاب موشّحاً ببعض الهزل ، وعلى أنّ الكتاب إذا كثُر هزله سَخُف ، كما أنه إذا كثر جِدُّه ثَقُل .

ولابد للكتاب من أن يكون فيه بعضُ ما ينشّط القارئ ، وينفى النعاس عن المستمع .

فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فليعلم أنّ قصدنا فى ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه ، والاستمالة لسمعه وبصره ، واللهَ تعالى ، نسأل التوفيــق .

١٤ - فصل منه فى ذكر العشق

ورجلان من الناس لا يعشقان عِشق الأعراب :

أحدهما الفقير المُدقِع ، فإن قلبه يُشْغَلُ عن التوغُّل فيه ، وبلوغ أقصاه .

والملك الضخمُ الشـأن ، لأن فى الرياسة الكبرى ، وفى جواز الأمر ونَفاذ النَّهى ، وفى مِلْك رقـاب الأمم ، ما يشغلُ شَطْرَ قـوى العقل عن التـوغل فى الحب ، والاحتراق فى العشق .

١٥ - فصل منـه

كثيراً ما يعترى العشـاق والمحبين غير المحترقين ، كالرجـل تكون له جارية وقد حلّت من قلبه مَحَلاً ، وتمكّنت منه تمكُّناً ، ولا يجتثُّ أصل ذلك الحب

الغضْبة تعرِض ، وكثرة التأذّى بالخلاف يكون منها ، فيجدُ الفترة عنها فى بعض هذه الحالات التى تعرض ، فيُظنُّ أنه قد سَلا ، أو يُظَنُّ أنه فى عزائه عنها على فقدها مُحتملاً فيبيعها إن كانت أَمَة ، أو يطلّقها إن كانت زوجة .

فلا ينْشَب ذلك الغضبُ أن يزول ، وذلك الأذى أن يُنسَى ، فتتحرك له الدفائن ، ويُثمر ذلك الغرْس ، فيُشْبعُها قلبه ، فإما أن يسترجع الأَمَة من مُبتاعها ، بأضعاف ثمنها ، أو يسترجع الزوجة بعد أن نُكِحَتْ .

فإن تَصبَّر وأمكنه الصبر ، لم يزَلْ معذباً ، وإن أطاع هواه ، واحتمل المكروه .. فهذا هو العقابيل والنُّكْس [1] .

فليحذر الحازم الفترة فى حب حبيبه ، والغضبة التى تنسيه عواقبَ أمرِه .

١٦ - فصل منه

قال إبراهيم بن السِّنْدِى : حدَّثنى عبد الملك بن صالح قال :

بينما « عيسى بن موسى » [2] قد خلا بنفسه ، وهو قد كان استكثر من النساء حتى انقطع ، إذ مرت به جارية كأنها جانّ ، وكأنها جِدْلُ عنان [3] ، وكأنها جُمَّارة ، وكأنها قضيبُ فضّة .

فتحركت نفسه ، وخاف أن تَخذُلَه قُوَّته ، ثم طمع فى القوة لطول التَّرْك ، واجتماع الماء .

فلما صَرَعها ، وجلس منها ذلك المجلس ، خَطَر على باله لوعَجَزَ كيف يكون حاله ؟ فلما فكَّر فَتَر ، فأقبلَ كالمخاطب لنفسه فقال:

(١) العقابيل : بقايا العلة والعشق والمرض ، الواحد عقبول وعقبولة ، والنكس. بالضم : عود المرض بعد النقه .

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، أحد ولاة العباسيين وقوادهم وأبوه موسى هو آخر السفاح والمنصور .

(٣) أى عنان مجدول .

إنّكِ لتجلسينى هذا المجلس ، وتحملينى على هـذا المركب ، ثم تخذلينى هـذا الخذلان وتُغَشّينى مثـلَ هـذا الذُّلّ ، ولولا حَيرة الخجَل ، لم أستعمل ما لا يقتل ! .

وذلك أنه حين رأى أن أبلَغَ الحِيَل فى توهيمها أن العجز لم يكن من قبله أن يقولَ لها :

– تَعَرَّضين لى وأنـت تَفِلَةٌ ، ثُم لا تُرْخِينَ بادَّيْك [1] ، ولا تستـهدفين لسيِّدك ، ولا تُعينين على نفسـك ، حتى كأنك عـند عبدٍ يُشْبِهُك ، أو سُوقـةٍ لا يقدر إلا على مِثلك ، أمَا لو كُنتِ من بنات ملوك العَجَم لألفَاكِ سيِّدُكِ على أجودِ صنعة ، وعلى أحسنِ طاعة ، إذْ كُلُّ رجلٍ ينبسِط للتمتع مع النَّفَل .

١٧ – فصل منه

ولم أسمع ولم أقرأ الأحاديث المولَّدة ، فى شأن العُشّاق ، وما صنَع العشقُ فى القلوب والأكباد والأحشاء ، والزَّفرات والحنين ، وفى التَّدليه والتَّوليه [2] ، متى تستعر الدَّمعة ، ومتى يورث العين الجمودُ [3] .

١٨ – فصل منه

ونحن وإن رأينا أن فَضلَ الرَّجلِ على المرأة ، فى جُملة القول فى الرجال والنساء ، أكثر وأظهر ، فليس ينبغى لنا أن نقصِّر فى حقوق المرأة ، وليس ينبغى لمن عظَّم حقوق الآباء أن يصغِّر حقوق الأمَّهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنُون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم ، فإن هذه أرحم .

(١) البادان : باطنا الفخذين ، وما بين الرجلين ، ومنه قول الدهناء بنت مسحل : « إنى لأرخى لك بادى » . اللسان (بدد ٤٦) .

(٢) دلهه الحب تدليها : حيره وأدهشه ، فهو مدله ، وكذا ولهه توليها : حيره وأذهب عقله .

(٣) جمود العين : قلة دمعها .

١٩ - فصل من احتجاجه للإماء

قال بعضُ من احتجَّ للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظَى عند الرجال من أكثر المهيرات (١) : إن الرجل قبل أن يَملكَ الأَمَةَ قد تأمل كل شىء منها وعَرَفَه ، ما خلا خُطوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقُوعها بالموافقة .

والحُرَّة إنما يُستشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يُبْصِرون من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً .

والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تَعرِف المرأةُ من المرأة ظاهر الصِّفة ، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك .

وقد تُحسِن المرأة أن تقول :

كأنَّ أنفها السيف .

وكأن عينها عينُ غزال .

وكأن عُنُقَها إبريق فضّة .

وكأن ساقها جُمارة (٢).

وكأن أطرافها المدارِى (٣) .

وما أشبه ذلك :

وهناك أسباب أُخَر ، بها يكون الحب والبغض .

---

(١) المهيرة : التى تعطى المهر من الحرائر .

(٢) الجمار : شحم النخل ، تشبه به الساق فى اللين والبياض وفى الحديث « كأنى أنظر إلى ساقه فى غزوه كأنها جمارة » .

(٣) أطرافها ، أى أطراف أصابعها ، والمدارى بكسر الراء وفتحها : جمع مدرى ومدارة ، وهى شىء يعمل من حديد أو خشب على هيئة سن من أسنان المشط ، تشبه به فى الدقة .

٢٠ - فصل منه

وقد عَلِمَ الشاعر ، وعرَف الواصف ، أن الجارية الفائقة الحُسن أحسنُ من الظَّبية ، وأحسنُ من البقَرة ، وأحسنُ من كُلِّ شيء تشبَّه به ؛ ولكنهم إذا أرادوا القول شبهوها بأحسن ما يجدون .

ويقول بعضهم : كأنها الشمس ، وكأنها القمر ! والشمس وإن كانت بهية فإنما هي شيءٌ واحد .

وفي وجه الجارية الحسناء وخَلْقها ضروبٌ من الحُسن الغريب ، والتركيب العجيب .

ومن يَشُكُّ أن عين المرأة الحسناء أحسن من عين البقرة ، وأن جيدَها أحسن من جيد الظبية ، والأمر فيما بينهما متفاوِت ؛ ولكنهم لولم يفعلوا هذا وشِبْهه ، لم تَظهر بلاغتُهم وفطنتُهم .

٢١ - فصل منه

ورأيتُ أكثر الناس من البُصَراء بجواهر النساء ، الذين هم جهابذةُ هذا الأمر ، يقدِّمون المجدُولة من النساء تكون في منزلةٍ بين السَّمينة والممشوقة .

ولا بد من جَودة القَدِّ ، وحُسْن الخرْط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظّهر ، ولابد من أن تكون كاسيةَ العِظام ، بين الممتلئة والقَضِيفة .

وإنما يريدون بقولهم : مجدُولة ، جودة العَصَب ، وقِلّة الاسترخاء ، وأن تكون سليمةً من الزوائد والفُضول .

وكذلك قالوا : خُمصانة وسيّقانه (١) ، وكأنها جان ، وكأنها جَدْل عِنان ، وكأنها قضيبُ خَيَزُران .

والتثنّي في مَشْيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسّمينة ، وذات الفضول والزوائد .

على أن النحافة في المجدُولة أعمّ ، وهي بهذا المعنى أعرف ، تُحبَّبُ على السّمان الضخام ، وعلى الممشوقات والقِضاف (٢) ، كما يحبَّب هذه الأصناف على المجدُولات .

ووصفوا المجدُولة بالكلام المنثور فقالوا : « أعلاها قَضيب ، وأسفلُّها كثيب » . أ . هـ .

* * *

(١) الخمصانة ، بفتح الحاء وضمها : الضامرة البطن ، والسيقانة : الطويلة الممشوقة .

(٢) القضيفة : الدقيقة النحيفة لا عن هزال .

« القيان .. والعشق »

* قال « أبو عمرو بن بحر الجاحظ » :

من أبى موسى بن اسحاق بن موسى ، ومحمد بن خالد خذار خذاه ، وعبد الله بن أيوب أبى سُمير ، ومحمد بن حماد كاتب راشد ، والحَسَن ابن إبراهيم بن رباح ، وأبى الخيار ، وأبى الرنال ، وخاقان بن حامد ، وعبد الله ابن الهيثم بن خالد اليزيدى المعروف بمشرطة ، وعلك بن الحسن ، ومحمد بن هارون كبة ، وإخوانهم المستمتعين بالنعمة ، والمؤثرين للذة ، المتمتعين بالقيان وبالإخوان ، المعدِّين لوظائف الأطعمة ، وصنوف الأشربة ، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس ، أصحاب الستر والستارات ، والشرور والمروءات .

إلى أهل الجهالة والجفاء ، وغلظ الطبع ، وفساد الحِسّ .

سلام على من وُفّق لرشده ، وآثرَ حَظّ نفسه ، وعرف قدْر النعمة ، فإنه لا يشكو النعمة من لم يعرفها ويعرف قدرها ، ولا يزاد فيها من لم يشكرها ، ولا بقاء لها على من أساء حملها .

وقد كان يقال : حَمْل الغِنَى أشدُّ من حمل الفَقر ، ومؤونة الشكر أضعفُ من مَشقّة الصبر .

جَعَلَنَا الله وإياكم من الشاكرين .

أمّا بعد .. فإنه ليس كلُّ صامتٍ عن حجته مبطلاً فى اعتقاده ، ولا كل ناطقٍ بها لا برهانَ له محقاً فى انتحاله ، والحاكم العادل من لم يعجَلْ بفَصْل القضاء دون استقصاء حُجَج الخصماء ، ودون أن يحوّل القول فيمن حضر من الخُصَماء

والاستماع منه ، وأن تبلغ الحجّة مداها من البيان ، ويشرك القاضي الخصمين في فهم ما اختصما فيه ، حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حُكمه أعلمَ منه بباطنِه ، ولا بعلانيَةِ ما يُفْلج الخِصامَ منه أطبَّ منه بسرِّه .

ولذلك ما استعمل أهلُ الحزم والرويّة من القضاة طُولَ الصمت ، وإنعامَ التفهُّم والتمهُّل ، ليكون الاختيار بعد الاختبار ، والحكم بعد التبيُّن .

وقد كنا ممسكين عن القول بحجتنا فيما تضمّنه كتابنا هذا اقتصاراً على أن الحق مكتفٍ بظهوره ، مُبين عن نفسه ، مستغنٍ عن أن يُستدلَّ عليه بغيره ، إذ كان إنما يُستدلُّ بظاهرٍ على باطن ، وعلى الجوهر بالعرض ، ولا يُحتاج أن يستدَلَّ بباطن على ظاهر .

وعلمنا أن خصماءنا ـ وإن موّهوا وزهرفوا ـ غير بالغين للفلَج والغلبة عند ذوى العدل دون الاستماع منا ، وأن كل دعوى لا يَفلُجُ صاحبُها بمنزلة مالم يكن ؛ بل هى على المدعى كَلٌّ وكَرب حتى تؤدِّيَه إلى مسرَّة النُّجح ، أو راحة اليأس .

إلى أن تفاقَمَ الأمرُ ، وعِيلَ الصبر ، وانتهى إلينا عيب عصابةٍ لو أمسكنا عن الإجابة عنها والاحتجاج فيها ، علماً بأن من شأن الحاسد تهجين ما يَحسُد عليه ، ومن خُلق المحروم ذَمّ ما حُرِم وتصغيرَه والطَّعن على أهله ـ كان لنا فى الإمساك سَعة .

فإن الحسد عقوبة موجبة للحاسد بما يناله منه ويَشينُه ، من عصيان ربّه ، واستصغار نعمته ، والسُّخط لَقَدَره [1] ، مع الكرب اللازم والحزن الدائم ، والتنفس صُعُداً [2] ، والتشاغل بما لا يُدرك ولا يُحصى .

---

(١) « والسخط على القدرة » .

(٢) يقال : هو يتنفس الصعداء ويتنفس صعدا ، الأولى ممدودة بضم ففتح ، والأخيرة مقصورة بضمتين ، وهو النفس بتوجع .

وأن الذى يشكر فعلى أمرٍ محـــدود يكون شكره ، والذى يحســـد فعلى ما لا حدّ له يكون حسده . فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حَسد عليه . لأنّا خفنا أن يظن جاهل أن إمساكنا عن الإجابة إقرار بصدق العَضيهة [1] ، وأن إغضاءنا لذى الغيبة [2] عجز عن دفعها .

فوضعنا فى كتابنا هذا حُججًا على من عابنا بملك القيان ، وسبّنا بمنادمة الإخوان ، ونَقَم علينا إظهار النّعم والحديث بها ، ورجونا النصر إذ قد بُدينا والبادى أظلم ، وكاتب الحق : فصيح ـ ويروى « ولسان الحق فصيح » ـ ونَفَس المُحرَج لا يُقامُ لها ، وصَولة الحليم المتأنّى لا بقاء بعدها .

فبيّنّا الحجة فى اطّراح الغَيْرة فى غير محرّم ولا رِيبة ، ثم وصَفْنا فضل النعمة علينا ، ونقَضْنا أقــوال خصمائنا بقــولٍ موجزٍ جامعٍ لما قصــدْنا . فمهما أطنبنا فيــه ، فللشّرح والإفهام ، ومهما أدمجنا وطوينا فليخفّ حمله ، واعتمدنا على أن المطوْل يقـصر ، والملخّص يختصَر ، والمطوىّ يُنشَر ، والأصولَ تتفـرع ، وبالله الكفاية والعون .

إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها ، والأعجاز لاحقة بصدورها ، والموالىَ تبع لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشـاكلة ومنفردة بالمضادة ، وبعضـها علّة لبعض ، كالغيث عّلة السّحاب ، والسّحاب علة المـاء والرطوبة ،وكالحَب علّته الزّرع ، والزرع علته الحب ، والدجاجة علتهـا البيضـة ، والبيضـة علتهـا الدجاجة ، والإنسان علّته الإنسان .

والفَلَك وجميع مـا تحـويه أقطار الأرض ، وكل ما تُقلّه أكنافهـا للإنسـان خـولٌ ومتاع إلى حين . إلاّ أن أقربَ ما سُخّر له من روحـه وألطفـه عند نفسه « الأنثى » ؟ فإنها خُلقَت له ليسكن إليها ، وجعلت بينه وبينها مَودّة ورحمة .

---

(١) العضيهة : الإفك والبُهتان .

(٢) ط : « عن ذى الغيبة » .

ووجب أن تكون كذلك ، وأن يكون أحق وأولى بها من سائر ما خُوِّل إذ كانت مخلوقةً منه ، وكانت بعضاً له وجزءاً من أجزائه ، وكان بعضَ الشيء أشكلَ ببعض وأقرب به قُرباً من بعضه ببعض غيره .

فالنساءُ حَرْثٌ للرجال ، كما البنات رزق لِمَا جُعل رزقًا له من الحيوان .

ولولا المحنة والبلوى فى تحريم ما حُرِّم وتحليل ما أُحِلّ ، وتخليص المواليد من شبهات الاشتراك فيها ، وحصول المواريث فى أيدى الأعقاب ، لم يكن واحد أحق بواحدة منهن من الآخر ، كما ليس بعض السُّوام أحق برعى مواقع السحاب من بعض ، ولكان الأمر كما قالت المجوس :

– إن للرجل الأقرب فالأقرب إليه رَحِماً وسبباً منهن .

إلا أن الفرض وقع بالامتحان ، فخصَّ المطلق ، كما فعل بالزرع فإنه مرعًى لولد آدم ولسائر الحيوان إلا ما مَنَع منه التحريم .

وكل شىء لم يوجد مُحرَّماً فى كتاب الله وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباحٌ مُطْلَق .

وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس مالم نُخرِج من التحريم دليلاً على حُسنه ، وداعياً إلى حلاله .

ولم نعلم للغَيْرة فى غير الحرام وجهاً ، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزِمنَا قياس مَن أحقُّ بالنساء ؛ فإنه كان يقال : ليس أحدٌ أولى بهن من أحد ، وإنما هُنَّ بمنزلة المَشَام والتفاح الذى يتهاداه الناس بينهم .

ولذلك اقتصر من له العِدَّة على الواحدة منهن ، وفرَّق الباقى منهن على المقربين .

غير أنه لما عزم الفريضة بالفرق بين الحلال والحرام ، اقتصر المؤمنون على الحد المضروب لهم ، ورخصوه فيما تجاوزه .

فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضَون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ، ولا لحظة الخُلْسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا فى المناسمة والمثافنة [1] ، ويسمّى المولَع بذلك من الرجال الزِّيرَ ، المشتق من الزيارة .

وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ماليس بمنكر إذا أمنوا المُنكر ، حتى لقد حَسِكَ فى صدر أخى « بُثينة » من « جميل » ما حَسِك [2] من استعظام المؤانسة ، وخروج العُذر عن المخالطة ، وشكا ذلك إلى زوجها ، وهزّه ما حشّمه ، فَكمنا لجميل عند إتيانه « بثينة » ليقتلاه .

فلما دنا لحديثه وحديثها سَمعاه يقول ممتحناً لها :

- هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء ، فيما يشفَى غليل العشق ، ويطفئ نائرة الشوق ؟

قالت : لا .

قال : ولِمَ ؟

قالت : إن الحب إذا نكِح فَسَد !

فأخرج سيفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه ، فقال : أمَا والله لو أنعمتِ لى لملأته منك [3] .

فلما سَمعا بذلك وثِقا بغَيبه ، وركنا إلى عفافه ، وانصرفا عن قتله ، وأباحاه النظرَ والمحادثة .

---

(١) ناسمه مناسمة : دنا منه وشامه ، وحادثه ، وساره ، كما فى المعجم الوسيط . والمثافنة : المجالسة والمحادثة .

(٢) الحسك : الضغن والحقد .

(٣) أى لو أجبتنى بنعم لملأت السيف من دمك .

فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء ، فى الجاهلية والإسلام ، حتى ضُرِب الحجاب على أزواج « النّبى » ﷺ خاصة .

وتلك المحادثة كانت سبب الوُصلة بين « جميل » و « بثينة » ، و «عفراء» و « عـروة » ، و « كُثير » و « عـزّة » و « قيس » و « لُبـنى » و « أسمـاء » و « مرقّش » ، و « عبد الله بن عجلان » و « هند » .

ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عارًا فى الجاهلية ، ولا حرامًا فى الإسلام .

وكانت « ضُباعـة » ، من بنى « عامر بن قُرط [1] بن عامر بن صعصعـة » ، تحت « عبد الله بن جُدعان » زمانًا لاتلد ، فأرسل إليها « هشام بن المغـيرة المخـزومى » : ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذى لا يولد له ، قولى له حتى يطلقك ؟ .

فقالت لعبد الله ذلك .

فقال لها : إنى أخافُ عليكِ أن تتزوجى « هشام بن المغيرة » .

فقالت : لا أتزوجه .

قال : فإن فعلتِ فعليك مائة من الإبل تنحرينها فى الحزورة [2] وتنسجين لى ثوبًا يقطع مابين الأخشبين [3] ، والطوافُ بالبيت عُريانة .

قالت : لا أطيقه .

---

(١) أن القرطاد بطن من عـامر بن صعصعـة ، من العدنانية ، وهم بنو قـرط وقريط وقريطة بنى عبيد بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وانظر معجم قبائل العرب ٩٤٥ ، وفى الإصابة ٦٧٠ قسم : « ضباعة بنت عامر بن قرط بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة » .

(٢) الحزورة : سوق مكة .

(٣) الأخشـبان : جبـلان يضافـان تـارة إلى مكة وتارة إلى منى ، أحـدهما : « أبو قبيس » ، والآخـر « قعيقعان » .

وأرسلتْ إلى « هشام » فأخبرتْه الخبر ، فأرسل إليها : ما أيسَرَ ما سألكِ ، وما يَكْرُثك [1]وأنا أيسر قريش فى المال ، ونسائى أكثر نساء رجل من قريش ، وأنت أجمل النساء فلا تأبَّىْ عليه .

فقالت لابن جُدعان : طلِّقنى فإن تزوَّجتُ « هشاماً » فعلىَّ ما قُلتَ .

فطلَّقها بعد استيثاقه منها ، فتزوجها « هشام » فنحر عنها مائة من الجُزُر ، وجمع نساءه ، فنسجن ثوباً يسعُ ما بين الأخشبَين .

ثم طافت بالبيت عُريانة .

فقال « المطلب بن أبى وَدَاعة » : لقد أبصتُها وهى عُريانة تطوفُ بالبيت ، وإنِّى لَغلام أتْبعها إذا أدبرتْ ، وأستقبلها إذا أقبلت ، فما رأيت شيئاً مما خلَق الله أحسنَ منها ، واضعةً يَدَها على رَكَبِها وهى تقول :

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه	فما بدا منه فلا أُحلُّه
كم ناظرٍ فيه فما يملُّه	أخْثم مثل القَعْب بادٍ ظَلُّه

قال : ثم إن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهن ، فمن دونهنَّ يَطُفْن بالبيت مكشّفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل حجّ إلا به .

* * *

وأعرسَ « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه « بعاتكة » ابنة « زَيد ابن عمرو ابن نفيل » ، وكانت قبْله عند « عبد الله بن أبى بكر » ، فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تتزوج بعده أبداً ، على أن نَحَلَها قطعةً من ماله سوى الإرث ، فَخَطَبها « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، وأفتاها بأن يعطيَها مثلَ ذلك من المال فتصدّق به عن « عبد الله بن أبى بكر » ، فقالت فى مرثيته :

(١) كرثه الأمر يكرثه : ساءه واشتد عليه وبلغ منه المشقة . وفى ط . « يلويك » تحريف .

فـأقـسـمتُ لا تنفك عـينى سـخـينةً عليك ولا ينفـكُّ جلـدىَ أغـبـرا

فلما ابتَنى بها « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه أَوْلَمَ ، ودعا المهاجرين والأنصـار ، فلمـا دخـل « علىٌّ بن أبى طالب » عليـه السـلام قَصَدَ لبيت حَجَلَتها ، فرفع السِّجفَ ونظر إليها فقال :

فـأقـسـمتُ لا تنفك عـينى سـخـينة عليـك ولا ينفـكُّ جلـدى أصـفـرا

فخجـلت فـأطرقت ، وساء « عمرَ » رضى الله عنه ما رأى من خجلها وتشوُّرِهـا [١] عند تعيير « علىٍّ » إياها بنقض ما فارقت عليه زوجَهـا ، فقال : يا أبا الحَسَـن ، رحمكَ الله ، ما أردتَ إلى هذا ؟ .

فقال : حاجة فى نفسى قضيتُها .

هـذا ، وأنتـم ترون أن « عمر بن الخطاب » ، رضى الله عنـه ، كان أغيرَ النـاس ، وأنَّ « النبىَّ » ﷺ قال له :

ـ « إنى رأيتُ قصراً فى الجنَّة فسألتُ : لِمَنْ هذا القصر ؟ . فقيل : لعمر ابن الخطاب . فلم يمنعنى من دخوله إلاَّ لمعرفتى بغيرتك » .

فقال « عمر » رضى الله عنه : وعليك يُغارُ يا نبىَّ الله ! .

فلو كان النظرُ والحديث والدعـابة يُغـار منها ، لكان « عمر » المقدَّمَ فى إنكاره ، لتقدُّمه فى شدَّة الغيرة .

ولو كان حراماً لمنعَ منه ، إذ لا شك فى زهده ، وورعه ، وعلمه ، وتفقهه .

* * *

---

(١) التشور : الخجل . وفى الأصل : « نشوزها » .

وكان « الحَسَن بن عليّ » تزوج « حفصة » ابنة « عبد الرحمن »[(1)] ، وكان « المُنذر بن الزبير » يهواها[(2)] ، فبلغ « الحَسَن » عنها شيء فطلّقها .

فخطبها « المُنذر » فأبت أن تتزوجه ، وقالت : شَهَّرنى ! .

وخطبها « عاصم بن عمر بن الخطاب » رضى الله عنها فتزوجها ، فرقّى[(3)] « المنذر » عنها شيئًا فطلّقها .

وخَطَبَها « المُنذر » . فقيل لها : تزوجيه ليعلم الناس أنه كان يعضَهُك (٤) فتزوجته ، فعَلِمَ الناس أنّه كَذَب عليها .

فقال « الحسن » لعاصم : لنستأذن عليها « المنذر » فندخل إليها ، فنتحدث عنـــدها .

فاستأذناه ، فشاور أخاه « عبد الله بن الزُّبير » فقال : دعهما يدخلان .

فدخلا .. فكانت إلى « عاصمٍ » أكثر نظرًا منها إلى « الحَسَن » ، وكان أبسط للحديث .

فقال « الحسن » للمنذر : خُذ بيد امرأتك .

فأخذ بيدها ، وقـام « الحسن » و « عاصم » فخرجا ، وكان « الحسن » يهواها ، وإنما طلقها لَمّا رقّى إليه « المنذر » .

وقال « الحسن » يومًا لابن أبى عَتيق : هل لك فى العقيق[(5)] ؟ .

---

(١) حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . جمهرة بن حزم ١٢٣ .

(٢) المنذر بن الزبير بن العوام . الجمهرة ١٢٣ . (توفى عام ٧٣ هـ / ٦٩٢ م) .

(٣) يقال رقى فلان على الباطل ترقية ، إذا تقول مالم يكن وزاد فيه . وفى الأصل : « رقا » ، صواب كتابته من ط .

(٤) عضهه عضها : قال فيه مالم يكن .

(٥) العقيق : وادٍ عليه أموال أهل المدينة فيه عيون ونخل .

فخرجا .. فَعَدَل « الحَسَن » إلى منزل « حفصة » فدخل إليها ، فتحدثا طويلا .. ثم خرج ، ثم قال لابن أبى عتيق : هل لك فى العقيق ؟ .

قال : نعم .

فنزل بمنزل « حفصة » ودخل ، فقال له مرة أخرى : هل لك فى العقيق ؟ .

فقال : يا ابن أُمّ ، ألا تقول : هل لك فى « حفصة » !! .

وكان « الحسن » فى ذلك العصر أفضل أهل دهره . فلو كان محادثةُ النساء والنظرُ إليهن حرامًا ، وعارًا .. لم يفعله ، ولم يأذن فيه « المنذر بن الزبير » ، ولم يُشِرْ به « عبد الله بن الزبير » .

وهذا الحديث وما قبله يُبطلان ما روت الحُشوية من أن النظرَ الأول حرام والثانى حرام ؛ لأنه لا تكون محادثة إلا ومعها ما لا يحصى عدده من النظر . إلا أن يكون عنَى بالنظرة المحرَّمة النظر إلى الشعر والمجاسد [1] .

وما تخفيه الجلابيب مما يحل للزوج والولىّ ويحرُم على غيرهما .

* * *

ودعا « مصعب بن الزبير » « الشعبى » ، وهو فى قُبة له مجلَّلة بوشى ، معه فيها امرأته ، فقال : يا شعبى ، مَن معى فى هذه القبة ؟ .

فقال : لا أعلم أصلح الله الأمير ! .

فرفع السَّجفَ ، فإذا هو « بعائشة ابنة طلحة » .

و « الشعبى » فقيه أهل العراق وعالمُهم ، ولم يكن يستحل أن ينظر إن كان النظر حرامًا .

* * *

(١) المجاسد : جمع مجسد كمنبر ومصحف ، وهو القميص الذى يلى الجسد . وفى الأصل وط : « والنظر إلى الشعر والمجاسد » .

ورأى « معاوية » كاتباً له يُكلِّم جارية لامرأته « فاختة بنت قَرَظة »[1] ، فى بعض طُرق داره ، ثم خطب ذلك الكاتب تلك الجارية فزوَّجها منه .

فدخل « معاوية » إلى « فاختة » وهى متحشدة[2] فى تعبئة عِطر لعُرس جاريتها ، فقال : هوِّنى عليك يا ابنة قَرَظة ، فانى أُحسب الابتناء قد كان منذ حين ! .

و « معاوية » أحد الأئمة ، فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقع يقين ، وإنما حل ظن وحِسبان[3] ، لم يقضِ به ولم يوجبه ، ولو أوجبه لحَدَّ عليه .

وكان « معاوية » يؤتى بالجارية فيجرِّدها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ويَضَع القضيب على رَكَبها ، ثم يقول : إنه لمتاع لو وَجَدَ متاعًا ! ثم يقول لصعصعة بن صُوحان : خُذْها لبعض ولدك ، فإنها لا تحل ليزيد بعد أن فعلتُ بها ما فعلت .

* * *

ولم يكن يُعدَم من الخليفة ومَنْ بمنزلته فى القُدرة والتأنِّى[4] أن تقف على رأسه جارية تذبُّ عنه وتروِّحه ، وتعاطيه أخرى فى مجلسٍ عام بحضرة الرجال .

فمِن ذلك حديث الوصيفة التى اطَّلعت فى كتاب « عبد الملك بن مروان » إلى « الحجاج » وكان يُسِرُّه[5] ، فلما فشا ما فيه ، رجع على « الحَجَّاج » باللوم وتمثل :

(١) فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل . جمهرة أنساب العرب ١١٦ .
(٢) التحشد : التجمع .
(٣) الحسبان : بالكسر : الظن ، وبضم الحاء بمعنى الحساب والعد .
(٤) ط : « التأنى » ، والكلمة مهملة فى الأصل ، والتأنى : من قولهم تأنى له الشيء ، أى تهيأ ، كما يقال تأتى لفلان أمره .
(٥) من الإسرار والإخفاء . وفى الأصل : « يستره » ، والوجه ما أثبت من ط .

أَلَــمْ تَــرَ أن وشــاة الرجــا ل لا يتــركــون أديماً صــحــيــحًــا
فــلا تَفْــشِ ســرَّك إلا إليــك فــإن لكل نصــيح نصــيــحًــا

ثم نظر فوجد الجارية كانت تقرأ فنمَّت عليه .

ومن ذلك حديثُه حين نعَس فقال « للفرزدق » و « جرير » و « الأخطل » : من وَصَف نُعاساً بشعرٍ وبمثَلٍ يُصيب فيه ويُحسن التمثيل ، فهذه الوصيفة له . فقال « الفرزدق » :

رمــاهُ الكَرى فى الرأس حــتى كــأنه أمــيمُ جَلاَمــيــدٍ تَركنَ به وَقْرا [1]

فقال : شَدَخْتَنى ويلك يا فرزدق ! فقال « جرير » :

رمــاهُ الكَرى فى الرأس حــتى كــأنه يرى فى ســواد الليل قُنبــرة سَــقْرا

فقال : ويلك تركتنى مجنوناً ! ثم قال : يا أخطل فقُل . قال :

رمــاهُ الكَرى فى الرأس حــتى كــأنه نديم تروَّى بين نَــد مــانه خَمْــرا

قال : أحسنت ، خُذ إليك الجارية .

* * *

ثم لم يزل للملوك والأشراف إماة يختلفن فى الحوائج ، ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسْن للناس ، مثل « خالصة » جارية « الخيزران » ، و « عتبة » جارية « ريطة » : إبنة أبى العباس ، و« سُكَّر » و « تُركية » : جاريتى « أم جعفر » ، و « دُقاق » : جارية « العباسة [2] » ، و « ظَلُوم » و « قسطنطينةَ » : جاريتى « أُم حبيب » ، وامرأة « هارون بن جعبويه » ، و « حَمْدونة » أَمَةُ

(١) الأميم : الذى أُصيب فى أم رأسه .
(٢) العباسة بنت المهدى .

« نصر ابن السّندىّ بن شاهَك » ثُم كُن يبرزْن للناس أحسن ما كُنّ ، وأشبه ما يتزيّن به ، فلما أنكر ذلك منكر ، ولا عابه عائب .

* * *

ولقد نَظَرَ « المأمون » إلى سُكّر فقال : أحُرّة أنتِ أم مملوكة ؟ .

قالت : لا أدرى ، إذا غضبَتْ علَىّ « أُمّ جعفر » ، قالت : أنت مملوكة ، وإذا رَضِيَتْ ، قالت : أنت حُرة .

قال : فاكتبى إليها الساعة فاسأليها عن ذلك .

فكتبت كتاباً وَصلتْه بجناح طائرٍ من الهُدّى [١] كان معها ، أرسلتْه تُعْلِم « أُم جَعفر » ذلك .

فَعلمَتْ « أُم جعفر » ما أراد فكتبتْ إليها : « أنت حُرة » . فتزوجها على عشرة آلاف درهم ، ثم خَلاَ بها من ساعتها فواقَعَها وخلّى سبيلها ، وأمر بدفع المـال إليهـا .

* * *

والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام . أن المرأة المعنّسة [٢] تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك .

فلو كان حراماً وهى شابّة لم يحلّ إذا عنّستْ ؛ ولكنه أمر أفرَطَ فيه المتعدُّون حَدّ الغَيْرة إلى سُوء الخُلُق وضِيق العَطَن [٣] ، فصار عندهم كالحق الواجب .

(١) الهدى : جمع هاد ، وهو الحمام المدرب الذى يسمى حمام الزاجل .
(٢) المعنسة بفتح النون المشددة على الأصح ، ويقال بكسرها أيضاً ، وهى التى بقيت زماناً بعد أن تدرك لا تتزوج .
(٣) فى الأصل : « وضيق الفطنة » .

وكذلك كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة إلى عدّة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا الموت مادام الرجال يريدونها .

وهم اليوم يكرهون هذا ، ويستسمجونه في بعض ، ويعافون المرأة الحُرة إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ، ويُلزمون من خَطَبها العارَ ، ويُلحقون به اللّومَ ، ويعيّرونها بذلك ، ويتحظون الأَمَـة [1] وقـد تداولها من لا يُحصى عـدده من المـوالى .

فمن حَسّن هذا فى الإماء وقبّحه فى الحرائر ! ولِمَ لَمْ يغَاروا فى الإماء وهن أُمهات الأولاد وحظايا الملوك ، وغاروا على الحرائر .

ألا ترى أن الغَيْرة إذا جاوزت ما حرّم الله فهى باطل ، وأنها بالنساء لضعفهن أولَع ، حتى يَغَرْنَ على الظّنّ والحُلْم فى النوم ، وتغار المرأة على أبيها ، وتعادِى امرأته وسُرّيته .

ولم تزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدهر ، وكانت فارس تَعُدُّ الغناء أدبًا ، والروم فلسفة .

وكانت فى الجاهلية « الجرادتان » لعبد الله بن جُدعان [2] .

* * *

وكان « لعبد الله بن جعفـر الطيار » [3] جـوار تتغنّين ، وغلام يقـال له « بديع » يتغنّى ، فعابَه بذلك « الحكم بن مروان » ، فقال : وما علىَّ أن آخُذَ

(١) هذا الفعل لم يرد فى المعـاجم المتداولة ، وهـو من الحظـوة بمعنى قـرب المكانـة . وقالوا : امـرأة حظية : مفضلة على غيرها فى المحبة .

(٢) فى العقد ٦ : ٢٨ أنهما كانتا قينتين لعاد . وفى جنى الجنتين ٣٣ أن الجرادتين قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق ، وكذا فى أمثال الميدانى (ألحن من جرادتين) . وفى اللسان والقاموس (جرد) أنهما مغنيتان للنعمان .

(٣) هـو عبد الله بن جعفـر بن أبى طالب ، والطيار لقـب لجعفـر . وفى الحيـوان ٣ : ٢٣٣ : « ونحن نؤمن بأن جعفرا الطيار بن أبى طالب ، له جناحان يطير بهما فى الجنة ، جعلا له عوضا من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين فى يوم موءتة » .

الجيِّدَ من أشعار العرب وأُلقيَه إلى الجوارى فيترنَّمن به ويشذِّرنَه [1] بحلوقهن ، ونغمهن ! .

* * *

وسمع « يزيد بن معاوية » الغناء .

واتخذ « يزيد بن عبد الملك » « حَبابة » و « سَلاَّمة » [2] ، وأدخل الرجال عليهن للسماع ، فقال الشاعر فى « حَبَابة » :

إذا ما حَنَّ مِزهرُها إليها ... وحنَّتْ دونه أُذنُ الكرام
وأصغَوْا نحوه الآذان حتى ... كأنهم وما ناموا نِيام [3]

وقال فى « سَلاَّمة » :

ألم تَرَها ، واللهِ يكفيك شرَّها ، ... إذا طربتْ فى صوتها كيف تصنعُ
تردُّ نظام القول حتى تردُّه ... إلى صَلْصَلٍ من حلقها يترجَّعُ

وكان يسمع فإذا طَرِبَ شقَّ برده ثم يقول : أطير ! .

فتقول حبابة : لا تطير [4] ، فإن بنا إليك حاجة .

* * *

ثم كان « الوليد بن يزيد » المتقدِّمَ فى اللَّهو والغَزَل ، والملوك بعد ذلك يسلكون على هذا المنهاج وعلى هذا السبيل الأول .

* * *

(١) هو من قولهم : شذر النظم : فصلة بالخرز ونحوه .

(٢) حبابة بتخفيف الباء الموحدة ، وسلامة بتشديد اللام كما نص ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٥٠ ومما يؤيد ضبط حبابة بالتخفيف ماورد فى الأغانى : ١٣ : ١٥٤ :

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر ... ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر

(٣) فى البيت اقواء ظاهر .

(٤) أى لا تطر .

وكان « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه ، قبل أن تناله الخلافة يتغنّى . فما يُعْرَف من غنائه :

أَلِمَّا صاحبى نزُرْ سعادا ... لقُرب مَزارِها ودعَا البِعادا [1]

ولـه :

عاود القلبُ سعادا ... فَقَلاَ الطَّرفُ السُّهادا [2]

ولا نرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسواً نَغَماً : فما كان منه صدقاً فحَسَن ، وما كان منه كذباً فقبيح .

وقد قال النبى عليه السلام : « إن من الشِّعْر لحِكْمَةً » [3] .

وقال « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه : « الشِّعْرُ كلامٌ ، فحسنُه حسن ، وقبيحه قبيح » .

ولا نرى وزن الشعر أزال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يضُرُّه ذلك ، ولا يزيل منزلته من الحكمة .

فإذا وَجَب أن الكلام غير محرَّم فإن وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلّة من العِلَلْ ، وأن الترجيع له أيضاً لا يخرج إلى حرام ، وأنّ وزن الشعر من جنس وزن الغناء .

وكتاب العروض من كتاب الموسيقى ، وهو من كتاب حدّ النفوس ، تحُدُّه الألسنُ بحدٍّ مقْنِع ، وقد يُعرف بالهاجس ، كما يعرف بالإحصاء والوزن ،

---

(١) فى الأغانى ٨ : ١٤٥ : « لوشك فراقها وذرا البعادا » .

(٢) فى الأصل وط : « فعلا » ، وجعلها فنكل « فقلى » ، وما أثبت أقرب تصحيح . يقال قلاه يقلوه وقلاه يقليه : أبغضه .

(٣) رواه البخارى ، والترمذى ، وابن ماجه ، والإمام أحمد .

فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك فى كتاب الله تعالى ، ولا سُنَّة نَبِيِّه عليه السلام .

فإن كان إنما يحرِّمه لأنه يُلهى عن ذِكْر الله ، فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشارب والنظر إلى الجنان والريَّاحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصدُّ وتُلهى عن ذِكْر الله .

ونعلم أن قَطعَ الدّهر بذِكْر الله لِمَنْ أمكنه : أفضل ، إلا أنه إذا أدَّى الرجل الفَرضَ ، فهذه الأمور كلها له مباحة ، وإذا قصَّر عنه لزمه المأثم .

ولو سَلِمَ من اللّهو عن ذِكْر الله أحد ، لَسَلِمَ الأنبياء عليهم السلام .

هذا « سليمان بن داود » عليهما السلام ، ألهاه عَرضُ الخيل عن الصَّلاة ، حتى غابت الشمس ، فعرقَبَها وقَطَع رقابها .

وبعد ، فإن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثَّمَن ، ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يَسْتَشِفَّا العلق ويتأملاه تأمُّلاً بيِّنًا يجب فيه خيار الرؤية المشترط فى جميع البياعات (١) .

وإن كان لايُعرف مبلغهُ بكيلٍ ولا وزن ولا عَددٍ ولا مساحة ، فقد يُعرف بالحُسن والقُبح ، ولا يقف على ذلك أيضاً إلا الثاقب فى نظره ، الماهر فى بَصره ، الطَّبُّ بصناعته ، فإن أمرَ الحُسن أدقُّ وأرقُّ من أن يدركه كلُّ من أبصره .

وكذلك الأمور الوهمية ، لا يُقضَى عليها بشهادة إبصار الأعين ، ولو قُضِىَ عليها بها كان كل من رآها يَقضى ، حتى النَّعَم والحمير ، يحكم فيها لكل بصير العين يكون فيها شاهداً وبصيراً للقلب ، ومؤدِّيًا إلى العقل ، ثم يقع الحكم من العقل عليها .

---

(١) البياعات : بكسر الباء : جمع بياعة ، وهى السلعة .

وأنا مبيِّن لك الحُسن . هو التمام والاعتدال . ولست أعنى بالتمام تجاوُز مقدار الاعتدال كالزيادة فى طول القامة، وكدقّة الجسم أو عِظَم جارحة من الجوارح، أو سعَـَة العين أو الفم ، مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين فى الخَلْق ، فإن هذه الزيادة متى كانت فهى نُقصان من الحسن ، وإن عُدَّت زيادة فى الجسم .

والحدود حاصرة لأمور العالم ، ومحيطة بمقاديرها الموقوتة لها [1] ، فكل شىء خرج عن الحد فى خُلُق ، حتى فى الدِّين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور ، فهو قبيح مذموم .

وأما الاعتدالُ فهو وزن الشىء لا الكمية ، والكون كون الأرض ، لا استواؤها .

ووزن النفوس فى أشباه أقسامها . فوزن خِلقة الإنسان اعتدالُ محاسنه ، وألا يفوتَ شىء منها شيئاً ، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأفطس ، والأنف العظيم لصاحب العين الضيِّقة ، والذّقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المجدَّع النِّضو [2] ، والظّهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرتين ، والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلتين ، وكسَعَة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه .

ثم هذا أيضاً وزنُ الآنية وأصناف الفُرُش والوشْى واللباس ، ووزن القَنَوات التى تجرى فيها المياه .

وإنما نعنى بالوزن : الاستواء فى الخرط والتركيب .

فلابد مما لا يمنع الناظر من النظر إلى الزرع والغرس والتفسُّح فى خُضرته ، والاستنشاق من روائحه ، ويسمى ذلك كله له حِلاً ما لم يمد له يداً .

---

(١) الموقوتة : المُقَدَّرة .

(٢) المجدع : عنى به المنقوص الخلق ، وأصله المجدع من النبات ، وهو ما قطع من أعلاه ونواحيه . والنضو ، بالكسر : المهزول .

فإذا مدّ يداً إلى مثقال حبّةٍ من خردل بغير حقّها فعلَ مالا يحلُّ ، وأكل ما يحرُم عليه .

وكذلك مكالمة القِيان ومفاكهتهن ، ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام ، ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر ، حلال ما لم يَشُبْ ذلك ما يَحرُم .

وقد استثنى الله تباركَ وتعالى اللّمَمَ فقال :

﴿ **الّذينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلاَّ اللّمَمَ إنّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ** [1] ﴾ .

قال « عبد الله بن مسعود » ، وسُئل عن تأويل هذه الآية فقال : إذا دَنَا الرجلُ مِنَ المرأة فإنْ تقدّم ففاحشة ، وإن تأخر فلمم .

وقال غيره من الصحابة : القُبْلَة واللّمْس .

وقال آخرون : الإتيان فيما دون الفرج .

وكذلك قال الأعرابيِ حين سُئل عما نال من عشيقته ؟ . .

فقال : ما أقربَ ما أَحلّ الله مما حرّم الله ! .

فإن قال قائل : فيما روى من الحديث :

« **فرّقوا بيْنَ أنفاس الرّجَال والنساء** » .

وقال : « **لا يَخْلُ رَجُل بامرأة فِي بيْتٍ وإن قِيلَ حَمْوُها ، ألا إنّ حَمْوَها الموت** [2] » .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم . وفى الأصل وط : « والذين يجتنبون » وسبب هذا التحريف اشتباه بالآية ٣٧ من سورة الشورى .

(٢) الحمو ، بالفتح : لغة فى حم المرأة ، إذ فيه ست لغات ذكرها الأشمونى فى ١ : ٧١ . وانظر صحيح مسلم ١٧١١ . وفى اللسان (حما) : « ألا حموها الموت » بدون « إن » ، وهذا على لغة من يعرب الحم بالحروف الثلاثة .

وإن فى الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط و (العشق) مع ما ينزل بصاحبه من الغُلمة التى تَضطرُّ إلى الفجور ، وتَحمِل على الفاحشة وأنَّ أكثر من يحضُر منازل القيان إنما يحضُر لذلك لا لسماع ولا ابتياع .

قلنا : إن الأحكام إنما تقع على ظاهر الأمور ، ولم يكلِّف الله العباد الحكم على الباطن ، والعملُ على النيات ، فيُقضَى للرجل بالإسلام بما يُظهر منه ، ولعلَّه مُلحِد فيه ، ويُقضَى أنه لأبيه ولعله لم يلِدْه الأب الذى ادَّعى إليه قط ، إلا أنه مولود على فراشه ، مشهورٌ بالانتماء إليه .

ولو كُلِّف من يشهد لرجلٍ بواحدٍ من هذين المعنَيين على الحقيقة لم تَقُم عليه شهادَة ، ومن يحضر مجالسنا لا يظهر نسباً مما ينسبونه إليه ، ولو أظهرَ ثُمَّ أغضبنا له عليه لم يلحقْنا فى ذلك إثم .

والحسب والنسب الذى بلغ به القيانُ الأثمانَ الرغيبة إنما هو الهَوَى .

ولو اشترى على مثل شِرىَ الرقيق ، لم تجاوز الواحدة منهن ثمنَ الرأس الساذَج .

فأكثر من بالَغ فى ثمنِ جاريةٍ فبالعشق ، ولعله كان ينوى فى أمرها الرِّيبةَ ، ويجدُ هذا أسهل سبيلاً إلى شفاء غليله ، ثم تعذَّر ذلك عليه ، فصار إلى الحلال ، وإن لم ينْوِه ويعرف فضلَه ، فباع المتاعَ وحَلَّ العُقَد [1] وأثقل ظهره بالعُبِيَّة [2] حتى ابتاع الجارية .

---

(١) العقد : جمع عقدة ، وهى الضيعة ، واعتقدها : اشتراها .

(٢) العبية بكسر العين وضمها وتشديد كل من الباء المكسورة والياء المفتوحة : الكبر والفخر . وفى ط : « بالعيبة » .

ولايعمل عملاً ينتج خيراً غير إغرائه بالقيان وقيادته عليهن ، فإنه لا ينجم [1] الأمر إلا وغايته فيهن (**العشق**) فيعوق عن ذلك ضبط الموالى ومراعاة الرقباء وشدة الحجاب ، فيُضطر العاشق إلى الشراء ، ويحل به الفَرَج ، ويكون الشيطان المدحور .

و (**العشق**) : داء لا يُملك دَفعه ، كما لا يستطاع دفع عوارض الأدواء إلا بالحمية ، ولا يكاد يُنتَفع بالحمية مع ما تولّد الأغذية وتزيد فى الطبائع بالازدياد فى الطَّعم .

ولو أمكن أحداً أن يحتمَى من كل ضرر ، ويقفَ عن كل غذاء ، للزمَ ذلك المتطيب فى آفات صحته ، ونَحَل جسمُه وضَوَى لحمْه ، حتى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه بالعناية فى الطيبات ، ولو مَلَك أيضاً صرف الأغذية واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغيُّر الهواء ولا اختلاف الماء .

وأنا واصف لك حدّ (**العشق**) لتعرف حدّه :

هو داءٌ يصيبُ الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروح الضعف فى البطش والوهن فى المرء ينهكه .

وداء (**العشق**) وعمومه فى جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم .

وصعوبة دوائه تأتى من قبل اختلاف علله ، وأنه يتركب من وجوهٍ شتّى ، كالحُمَّى التى تَعرِض مركّبة من البرد والبلغم .

فمن قصد لعلاج أحد الخلطين كان ناقصاً من دائه ، زائداً فى داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوة أركانه يكون ثبوته وإبطاؤه فى الإنحلال .

---

(١) لاينجم ـ فى ط : لا يتحمل .

(**فالعشق**) يتركب من الحب والهوى ، والمشاكلة والإلف ، وله إبتداءٌ في المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوطٌ في التوليد إلى غاية الإنحلال ، ووقف الملال .

والحُب اسمٌ واقع على المعنى الذى رُسم به ، ولا تفسير له غيره ، لأنه قد يقال : إن المرء يحبُّ الله ، وإن الله جلّ وعزّ يُحب المؤمن ، وإن الرجل يحب ولده ، والولد يحب والده ، ويحب صديقه ، وبلده وقومه ، ويحب على أى جهة يريد ، ولا يُسَمَّى ذلك (**عشقاً**) .

فيُعلم حينئذ .. أن اسم الحب لا يُكتفى به فى معنى (**العشق**) حتى تضاف إليه العِلل الأُخَرْ .

إلا أنه ابتداء (**العشق**) ، ثم يتبعه حُبُّ الهوَى ، فربما وافق الحق والاختيار ، وربما عدَلَ عنهما .

وهذه سبيل الهوى فى الأديان والبُلدان وسائر الأمور ، ولا يميل صاحبُه عن حجته واختياره فيما يهوى .

ولذلك قيل : « عين الهوى لا تصدُق » .

وقال (ﷺ) : « **حُبُّكَ الشَّئْ يُعْمِى وَيُصِمُّ** [1] » . يتخذون أديانهم أرباباً لأهوائهم .

وذلك أن (**العاشق**) كثيراً ما يعشق غير النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم إن سئل عن حجته فى ذلك لم تَقُم له حُجة .

---

(١) حديث شريف رواه أبو داود فى سُننه .

ثم قد يجتمع الحب والهوى ولا يسمّيان (**عشقاً**) فيكون ذلك فى الولد والصديق والبلد ، والصِّنف من اللباس والفُرش والدواب .

فلم نَرَ أحداً منهم يسقم بدنه ، ولا تتلف روحُه من حب بلده ولا ولده ، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق .

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تَلِفَ وطال جُهده وضناه بداء (**العشق**) .

فعلم أنه إذا أُضيف إلى الحُب والهَوَى المشاكلة ، أعنى مشاكلة الطبيعة ، أى حب الرجال النساءَ وحُبٌّ النساءِ الرجالَ ، المركّب فى جميع الفحول والإناث من الحيوان ، صار ذلك (**عشقاً**) صحيحاً .

وإن كان ذلك (**عشقاً**) من ذكر لذكرٍ فليس إلا مشتقاً من هذه الشهوة ، وإلا لم يسمٌ (**عشقاً**) إذا فارقت الشهوة .

ثم لم نره ليكون مستحكما عند أول لُقياه حتى يعقد ذلك الإلف ، وتغرِسَه المواظبة فى القلب ، فينبت كما تنبت الحبة فى الأرض حتى تستحكم ، وتشتد وتثمر ، وربما صار لها كالجذع السَّحوق ، والعمود الصلب الشديد .

وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل .

فإذا اشتمل على هذه العلل صار (**عشقاً**) تاماً .

ثم صارت قلة العيان تريد فيه وتُوقد نارَه ، والانقطاع يسعِّره حتى يُذهَل العقل ويُنهك البدن ، ويشتغل القلب عن كل نافعة ، ويكون خيال (**المعشوق**) نُصب عين (**العاشق**) والغالب على فكرته ، والخاطر فى كل حالة على قلبه .

وإذا طال العهد ، واستمرت الأيام نقص على الفرقة ، واضمحل على المطاولة ، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها .

فكذلك الظَّفَر (بالمعشوق) يُسرع فى حَلّ (عِشقه) .

والعلّة فى ذلك أن بعض الناس أسرع إلى (العشق) من بعض ، لاختلاف طبائع القلوب فى الرقّة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقِلّة الشهوة وضعفها .

وقل ما يظهر (المعشوق) عِشقاً إلا عداه بدائه ، ونكت فى صدره وشَغَف فُؤادَه ، وذلك من المشاكلة ، وإجابة بعض الطبائع بعضا ، وتَوَقانِ بعض الأنفس إلى بعض ، وتقارُب الأرواح . كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به ، فينعس ، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به ، فيفعل مثل فعله ، قسراً من الطبيعة .

وقَلَّ ما يكون عشق[1] بين اثنين يتساويان فيه إلا عن مناسبةٍ بينهما فى الشَّبَه فى الخَلْق والخُلُق وفى الظَّرف ، أو فى الهوى أو الطباع .

ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحب الحسن ، ويختار المختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار فى ذلك فيتوهم الغلط عليه ؛ لكنه لتعارف الأرواح ، وازدواج القلوب .

ومن الآفة (عِشق) القِيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس إليهن ، وأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع فى شيء على وجه الأرض .

(١) فى الأصل : « عشقا » ، صوابه ط .

واللذات كلهـا إنما تكون بالحـواس ، والمأكول والمشروب حظّ لحاسـة الذوق ، لا يشركها فيه غيرها .

فلو أكل الإنسـان المسكَ الذى هو حظّ الأنف وجـده بَشِعًا واستقذره ، إذْ كان دمًا جامدًا .

ولو تنسَّـمَ أرواح الأطعمـة الطيبة كـالفواكـه وما أشبـهها عند انقطاع الشهوة ، أو ألحّ بالنظر إلى شيء من ذلك ، عاد ضررًا .

ولو أدنى من سمعه كل طيِّب وطِيب ، لم يجد له لذة .

فـإذا جـاء بـاب القيان اشـترك فيـه ثلاثـة من الحـواس ، وصار القلب لها رابعًـا .

فللعـين النظـر إلى القينـة الحسـناء والمشهيـة إذا كان الحـذق والجمـال لا يكادان يجتمعان لُمستمتع ومرّتع .

وللسمع منها حظ الذى لا مؤونة عليه ، ولا تطرب آلته إلا إليه .

وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه .

والحواس كلها رُواد للقلب ، وشهود عنده .

وإذا رفعت القينة عقيرة حَلْقِها تغنّى حَدّق إليها الطَّرف ، وأصغى نحوها السمع ، وألقى القلب إليها المِلْك ، فاستبقَ السمع والبصر أيهما يؤدى إلى القلب ما أفاد منها قَبل صاحبِه ، فيتوافيان عند حبّة القلب فيُفرغان ما وَعَياه فيتولّد منه مع السُّرور حاسّة اللمس ، فيجتمع له فى وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له فى شيء قط ، ولم تُؤدِّ إليه الحواس مثلها . فيكون فى مجالسته للقينة أعظم الفتنة ، لأنه رُوى فى الأثر :

ـ « إياكم والنظرة فإنها تزرع فى القلب الشهوة » .

وكفى بها لصاحبها فتنة ، فكيف بالنّظر والشهوة إذا صاحبهما السّماع ، وتكانفتهما المغازلة .

إن القينة لا تكاد تخالص فى (عشقها) ، ولا تُناصح فى ودّها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نَصب الحِبالة والشَّرَك للمتربطين ، ليقتحموا فى أنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشِطت للشُّرب عند شربه ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصَّبابة لسرعة عودته ، والحُزن لفراقه .

فإذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تعقل فى الشَّرَك ، تزيّدت فيما كانت قد شرعَتْ فيه ، وأوهمتْه أن الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو إليه هواه ، وتُقسم له أنها مَدّت الدواة بدَمْعَتِها ، وبلّت السّحاءة بريقِها ، وأنه شَجَبُها وشَجْوها فى فكرتها وضميرها ، فى ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا توءثر أحدًا على هواه ، ولا تنوى انحرافًا عنه ، ولا تريده لماله بَلْ لنفسه ، ثم جعلَتِ الكتاب فى سُدْسِ طومار ، وختَمته بزعفران ، وشدَّته بقطعة زير[1] ، وأظهرت سَتره عن مواليها ، ليكون المغرور أوثق بها ، وألحّت فى اقتضاء جوابه ، فإن أجيبت عنه ادعت أنها قد صيّرت الجواب سَلوتَها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصحيفة تحكى الضّمير ملیحة نغماتُها
جاءت وقد قَرِح الفؤاد لطول ما استبطاتُها[2]

(١) الزير : وتر من أوتار العود .

(٢) يقال قرح قلبه من الحزن ، كأنه جرح . وفى ط : « فرح » ، وكلاهما متجه .

فضحكت حين رأيتها | وبكيت حين قرأتها
عينى رأت ما أنكرت | فتبادرت عبراتها
أظلومُ ، نفسى فى يديـ | ـك : حياتُها ووفاتُها

ثم تغنَّتْ حينئذ :

بات كتاب الحبيب نَدماني | محدِّثى تارةً وريحاني (1)
أضحكني فى الكتاب أوّله | ثم تمادَى به فأبكاني

ثم تجنَّت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله ، وحَمَتْه النظر إلى صَواحباتها ، وسَقَتْه أنصاف أقداحها ، وجَمَّشته بعَضوض تفاحها (2) ، وتحية من رياحانها ، وزودته عند انصرافه خُصلة من شعرها ، وقطعةً من مِرطها ، وشَظِيَّةً من مِضرابها (3) ، وأهدت إليه فى النيروز (4) تكّة وسُكّرًا ، وفى المهرجان خاتماً وتفاحة ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة اسمه (5) ، وغنَّته إذا رأته :

نظرُ المحبِّ إلى الحبيب نعيم | وصدوده خطر عليك عظيمُ

---

(1) الندمان ، بالفتح : النديم ، ط : « أن كتاب » .
(2) الجمش والتجميش : المغازلة . والغضوض : ما يعض عليه فيؤكل ، كما فى القاموس .
(3) المضراب : ما يضرب به العود .
(4) النيروز والمهرجان عيد .
(5) من مذاهب العرب أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها .
قال جميل :

وأنت لعينى قرة حين تلتقى | وذكرك يشقينى اذا خدرت رجلى

وقال الموصلى :

والله ما خدرت رجلى وما عثرت | إلا ذكرتك حتى يذهب الخدر

ثم أخبرتْه أنها لا تنام شوقًا إليه ، ولا تتهنأ بالطعام وجْدًا به ، ولا تملُّ ـ إذا غاب ـ الدموع فيه ، ولا ذَكرتْه إلا تنغصت ، ولا هتفتْ باسمه إلا ارتاعت ، وأنها قد جَمَعت قنّينة من دموعها من البكاء عليه ، وتنشد عند موافاة اسمه بيت المجنون :

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمها وأشبهَه ، أو كان منه مُدانيا

وعند الدعاء به قوله :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيف من منًى فهيَّج أحزان الفؤادِ وما يدرى
دعا باسم ليلَى غيرها فكأنما أطارَ بليلَى طائرًا كان فى صدرى

وربما قادها التمويه إلى التصحيح ، وربما شاركت صاحبها فى البلوى حتى تأتى إلى بيته فتُمكّنه من القُبْلَة فما فوقها ، وتُفرِشه نفسها إن استحل ذلك منها .

وربما جحدت الصناعة لترحض عليه (١) ، وأظهرت العلّة والتأثت على الموالى ، واستباعت من السادة ، وادّعت الحرية احتيالاً لأن يملكها ، وإشفاقًا أن يجتاحه كثرةُ ثمنها ، ولاسيما إذا صادفتْه حُلوَ الشمائل ، رشيق الإشارة ، عذبَ اللفظ ، دقيق الفهم ، لطيفَ الحِسّ ، خفيفَ الروح .

فإن كان كان يقول الشعر ويتمثل به ، أو يترنم كان أحظى له عندها .

وأكثر أمرها قلّة المناصحة ، واستعمال الغَدر والحيلة فى استنطاق ما يحويه المربوط والانتقال عنه .

---

(١) كذا . وفى ط : « لترخص عليه » .

وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامَون من الاجتماع ، ويتغايَرون عند الالتقاء ، فتبكى لواحدٍ بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرَّها والآخر علانيتها ، وتُوهمه أنها له دون الآخر ، وأن الذى تُظهر خلاف ضميرها ، وتكتب إليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة ، تذكر لكل واحدٍ منهم تبرُّمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم .

فلو لم يكن لإبليس شَرَك يقتل به ، ولا عَلَم يدعو إليه ، ولا فِتنة يستهوى بها إلا القيانُ ، لكفاه .

وليس هذا بذمٍّ لَهُنَّ ؛ ولكنه من فَرْط المدح ، وقد جاء فى الأثر :

ـ « خير نسائكم السواحر الخلاَّبات » .

وليس بحسن « هاروتُ وماروت » ، وعصا « موسى » ، وسَحَرة « فرعون » ، إلا دون ما يُحسنه القيان .

ثم إذا منعهن الزنى غَلَبه عليهن مخارجُ بيوت الكشاخنة ترميهن فى حجور الزُّناة [1] ، ثم هُنَّ أمهاتُ أولاد من قد بلغ بالحب لهن أن غفروا لهن كل ذنب ، وأغضوا منهن على كل عيب .

وإذا كُن فى منزل رجل من السُّوقة عَذَرتَهن ، وإذا انتقلن إلى منازل الملوك زال العُذْر ، والسبب فيه واحد ، والعلة سواء .

---

(١) فى الأصل : « ثم هذا منعهن الزنى أغلبه عليهن ومخارج بيوت الكشاخنة تربيتهن فى حجور الزناة » ، صوابه فى ط . والكشاخنة : جمع كشخان ، والكشخان : الديوث ، وهو القواد على أهله .

وكيف تَسلم القَينةُ من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكتسب الأهواء ، وتُتعلَّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى تنشأ من لَدُن مولدِها إلى أوانِ وفاتها بما يصدّ عن ذِكْر الله من لَهْو الحديث ، وصُنوف اللعب والأخانيث وبين الخُلعاء والمُجَّـان ، ومن لا يُسمع منه كلمــة جِـدٍّ ولا يُرجَع منه إلى ثقةٍ ولا دِين ولا صيانة مروّة .

وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوتاً فصاعدا ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عددُ ما يدخل فى ذلك من الشِّعر إذا ضُرِب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذِكْر الله إلا عن غفـلة ولا ترهيبَ من عقـــاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بُنِيت كُلُّها على ذِكْر الزِّنى والقيادة ، و (العشق) والصَّبوة ، والشوق ، والغُلْمة .

ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبَّة عليها ، تأخذ من المُطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش وإنشادُهم مراودة [(١)] .

وهى مضطرة إلى ذلك فى صناعتها ؛ لأنها إن جَفَتْها تفلّتت ، وإن أهملتْها نَقَصتْ ، وإن لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فإلى نقصانٍ أقرب ، وإنما فَرَق بين أصحاب الصناعات ، وبين من لا يُحسنها التزيُّدُ فيها ، والمواظبةُ عليها .

فهى لو أرادت الهُدى لم تعرفْه ، ولو بَغت الغفلة لم تقدر عليها ، وإن ثَبَّتت حُجة « أبى الهذيل » [(٢)] فيما يجب على المتفـكر ، زالت عنها خاصته ؛ لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها ، مشاغيل بما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن يلى مجالستها عليه وعليها .

---

(١) التجميش : المغازلة . وفى الأصل : « وأشدهم مرواده » ، صوابه من ط .

(٢) أبو الهذيل محمد بن الهـذيل المعـروف بالعـلاف المعتزلى ، انظر الفـرق بين الفـرق ١٠٢ والملل ١ : ٦٢ والمواقف ٦٢١ ومفاتيح العلوم ١٨ .

ومن فضائل الرجل منا : أن الناس يقصدونه فى رَحْلِه بالرغبة ، كما يُقصد بها للخلفاء والعظماء ، فيُزار ولا يُكلَّف الزيارة ، ويوصَل ولا يُحمَل على الصلة ، ويُهدَى له ، ولا تُقتضى منه الهدية .

وتبيت العيون ساهرة ، والعيون ساجمة ، والقلوب واجفة ، والأكباد متصدعة ، والأمانى واقفة ، على ما يحويه ملكه ، وتضمُّه يده ، مما ليس فى جميع ما يباع ويُشترى ، ويستفاد ويُقتنى ، بعد العُقَد النَّفيسة .

فمن يبلغُ شيئاً من الثمن ما بلغت « حبيشية » جارية « عَوْن » ، مائة ألف دينار وعشرون [1] ألف دينار .

ويرسلون إلى بيت مالكها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا حَصَلوا على النظر ، وانصرفوا بالحسرة ، ويجتنى مَولاها ثمرة ما غَرسوا ، ويتملَّى به دونهم ، ويُكفَى مؤونَة جواريه .

فالذى يقاسيه الناس من عَيلة العيال ، ويفكِّرون فيه من كثرة عددهم وعظيم مؤونتهم ، وصعوبة خدمتهم ، (هو) [2] عنه بمعزلٍ : لا يهتم بغلاء الدقيق ، ولا عَوَزَ السَّويق ، ولا عِزَّة الزيت ، ولا فساد النبيذ ، قد كُفِيَ حَسرته إذا نزِّر ، والمصيبة فيه إذا حَمَض ، والفجيعة به إذا انكسر .

ثم يَستقرض إذا أعسَرَ ولا يُرَدُّ ، ويَسأل الحوائج فلا يُمنع ، ويُلقَى أبداً بالإعظام ، ويُكنَّى إذا نودى ، ويُفَدَّى إذا دُعى ، ويُحيَّا بطرائف الأخبار [3] ، ويُطلع على مكنون الأسرار ، ويتغاير الرُّبطاء عليه ، ويتبادرون فى برِّه ، ويتشاحُّون فى ودِّه ، ويتفاخرون بإيثاره .

---

(١) ط : « وعشرين » .
(٢) ليست فى الأصل ، وزادها (فنكل) .
(٣) ط : « بطريف الأخبار » .

ولا نعلم هذه الصفة إلا للخلفاء : يُعطَون فوق ما يأخذون ، وتحصّل بهم الرغائب ، ويُدرَك منهم الغنى .

والمقيّن يأخذ الجوهر ، ويُعطى العرض ، ويفوز بالعين ويعطى الأثر ، ويبيع الريح الهابّةَ بالذهب الجامد ، وفِلَذ اللُّجين والعسْجد .

وبين المرابطين وبين مايريدون منه خَـرطُ القَتاد ؛ لأن صاحب القيان لو لم يترك إعطـاء المربوط سُـؤْلَه عفّةً ونزاهة ، لتَرَكه حذقـا واختيارًا ، وشُحًّا على صناعته ، ودفعًا عن حريم ضَيْعته .

لأن العاشق متى ظَفَر بالمعشوق مرة واحدة ، نقص تسعة أعشار (عشقه) ، ونقص من برّه ورفده بقدر ما نقص من (عشقه) . فما الذى يحمل المقيّنَ على أن يهتِك جاريتَه ، ويكسرَ وجهه ويصرف الرغبة عنه .

ولولا أنه مَثَلٌ فى هذه الصناعة الكريمة الشريفة لَمْ يَسْقُطُ الْغَيرة عن جواريه ويعنى بأخبار الرُّقباء ، ويأخذ أجرة المَبيت ويتنادم قبل العشاء ، ويُعرِض عن الغَمْزة ، ويَغفِر القُبْلَة ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتبة ، ويتناسى الجارية يوم الزيارة ، ولا يُجانبها على المبيت ، ولا يفضُّ ختام سرها ، ولا يسألها عن خبَرها فى ليلها ، ولا يَعبأ بأن تُقفَل الأبواب ، ويُشدِّد الحِجاب ويُعِد لكل مربوطٍ عُدّةً على حِدَة ، ويَعرف ما يَصلح لكل واحد منهم ، كما يميز التاجر أصناف تجارته ، فيسعِّرها على مقاديرها ، ويعرف صاحب الضياع أراضيه لمزارع الخُضر والحِنطة والشـــعير .

فمن كان ذا جاهٍ من الرُّبطاء .. اعتمد على جاهه ، وسأله الحوائج .

ومن كان ذا مالٍ ولا جاه له .. استقرض منه ، بلا عينة [1] .

---

(١) العينة ، بالكسر : الربا .

ومن كان من السلطان بسببٍ كُفيت به عاديةُ الشُّرَط والأعوان ، وأُعلنت فى زيارته الطبول والسَّرانى [1] ، مثل « سلمة الفُقَّاعى » [2] ، و « حَمدون الصَّحنانى » [3] ، و « علىّ الفامىّ » [4] ، و « حَجَر التَّور » [5] ، و « قَفْحة » ، و « ابن دَجاجة » ، و « حَفْصَويه » ، و « أحمد شَعْرة » ، و « ابن المجوسىّ » ، و « إبراهيم الغلام » [6] .

فأىٌّ صناعة فى الأرض أشرف منها ؟ ! .

ولو يَعلمُ هؤلاء المسمَّونَ فرق ما بين الحلال والحرام لم ينسُبوا إلى الكشخ [7] أهلها ؛ لأنه قد يجوز أن تباع الجارية من المَلِىءِ ، فيصيبُ منها وهو فى ذلك ثقة ، ثم يرتجعُها صاحبُها بأقل مما باعها به ، فيحصُل له الرِّبح ، أو تزوَّجُ ممن يثق به ، ويكون قصده للمتعة .

فهل على مزوِّجة من حرج ، وهل يفرُّ أحد من سعة الحلال إلا [8] الحائن الجاهل [9] ، وهل قامت الشهادة بزناءٍ [10] قطُّ فى الإسلام على هذه الجهة .

* * *

(١) السرانى : جمع سرناى ، والسرناى بضم السين ، كلمة فارسية معناها البوق الذى ينفخ فيه ويزمز . معجم استينجاس ٦٧٨ والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨ .

(٢) الفقاعى : نسبة الفقاع ، كرمان ، وهو شراب يتخذ من الشعير .

(٣) الصحنائى : نسبة إلى الصحناء ، بالكسر ، وهو إدام يتخذ من السمك ، فارسية ، والعرب تسميها الصير . ط : « الصحناوى » .

(٤) الفامى : نسبة إلى « فامية » مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ، ويقال لها أيضا « أفامية » . ط : « الغامى » ، تحريف .

(٥) أصل النور إناء من صفر أو حجارة كالإجانة . ط : « حجر النور » .

(٦) ط : « إبراهيم العلام » .

(٧) الكشخ ، من قولهم للشتائم : لا تكشخ فلانا ، أى لا تقل له ياكشخان . والكشخان : الديوث ، كما سبق .

(٨) فى الأصل : « الى » ، ووجهه من ط .

(٩) الحائن : الهالك . ط : « الخائن » .

(١٠) كذا فى الأصل ، وهى صحيحة وفى ط : « الزنا » .

هذه الرسالة التى كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سمّيناها فى صدرها .

فإن كانت صحيحةً فقد أدينا منها حقّ الرواية ، والذين كتبوها أولى بما قد تقلدوا من الحجّة منها .

وإن كانت منحولة فمن قِبلَ الطُّفَيليّين ، إذ كانوا قد أقاموا الحجة فى اطّراح الحشمة ، والمرتبطين لسهّلوا على المقيّنين ما صنعه المقترفون .

فإن قال قائل : إن لها فى كل صنفٍ من هذه الثلاثة الأصناف حظاً وسبباً .. فقد صدَق . وبالله سبحانه التوفيق .

* * *

(عشق الملوك)

* قال « أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ » (١٦٣ _ ٢٥٥ هـ / ٧٨٠ _ ٨٦٩ م) :

_ « قد عَلِمْنا أن المَلِك لا يستطيع أن يعشق عشق الأعرابى ؛ لأن فى الرياسة ، وجواز الأمر ، ونفاذ النهى ، وفى مِلك الرقاب ما يشغل شطْر قوَىَ العقل عن التوغل فى الحُب ، والاحتراف فى العشق .

« وليس كل من يكون عاشقاً ، لابد له أن يلحق بعشق الأعراب .. لأن الأعرابى ليس له ضياع تشغله، ولا تجارات تقسم باله.. ولا يقدر _ كلما شاء _ على مُغَنٍ ملَهٍ ، أو نَديم ممتع ، أو متنزه مونق ، وهو مفرغ القلب لمعشوقته ..

« وكلما لم يقدر عليها ، اشتد استحلاؤه لها ..

« وكلما كانت المطامع ممكنة فيها ، اشتد حنينه إليها ..

« فإذا طال عليه ذلك ، أورث أحشاءه قرحًا ، أو داءً يكون حتفه فيه .

« وقد يكون : أن يعشق الملك ، ولا يحترق احتراق الأعرابى لأمرين :

« أحدهما : إيثار أصالة الرأى ، وتمام العز ، والسلطان على الشهوة .

« والثانى : موقع الملك ، وما يشتمل عليه من تقسيم البال .

وقد قال الرشيد :

ملك الثلاث الآنسات عنانى ... وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها ... وأطيعهن وهُنَّ فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه عززن أعز من سلطانى

* * *

فهذا القول يدلُ على حُب قوى ، ولولا أن صدور الخلفاء أوسع ، لم يتسع صدر « الرشيد » لحُب ثلاث فى عقد واحد .. لكن قد يعرض للملك من قوة النفس ، وعزة المُلك ما يورثه عشقه فورة .. فإذا أفاق من نشوة القُدرة والملكة ، عاود وَجْده .. ألا ترى أن « امرئ القيس » ـ (١٣٠ ـ ٨٠ ق.هـ/ ٤٩٧ ـ ٥٤٥ م) ـ يقول تبرماً بالادلال ، وأنفة من الدلال :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ... وإن كنتِ قد أزمعتِ هجرى فاجملى
وإن تكُ ساءتك منى خليقة ... فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
أغرّك منى أن حُبك قاتلى ... وأنكِ مهما تأمرى القلب يفعل

فلما سكنت تلك الفورة ، ورجع إلى حقيقة (العشق) قال :

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربى ... بسهميك فى أعشار قلب مقتل

* * *

ويلتحق به باب من الغلط كبير ، وهو ما يعرض للمحبين ، والعشاق غير المحترقين من التبرم بالخلاف ، وقلّة الإنصاف ، وتوهم الصبر .. مثل الرجل تكون الجارية قد حلّت من قبله محلاً، أو القرينة والحبيبة ، فيغرّه ما يجد من إقبالها ، أو ما ينكره من إفراط ادلالها ، فيتوهم أنه يطيق السّلو عنها .. فيخبر عن حاله وهو متلبس بغيرها .. فيبيعها إن كانت أَمَة ، أو يطلقها إن كانت زوجة ، أو يقاطعها إن كانت خلة .. ثم لا يبطىء أن يزول ذاك الغضب ، وتتحرك تلك الدفائن ، وتُمحى تلك الإساءة بتذكر المحاسن ، فيتبعها نفسه ، فلا يقدر عليها ، أو يقدر بأضعاف ثَمنها إن كانت أمة ، أو بعد أن نكحت إن كانت زوجة... أو ما يناسب ذلك من الأمور التى كان فى غنى عنها ، ولا يمكن الصبر عليها [1] .

* * *

(١) شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى ..

١ ـ العشق عند « الرازى »[1] : (٢٥١ ـ ٣١٣ هـ / ٨٦٥ ـ ٩٢٥م) :

« عيوب النفس »

* يقول « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى » :

من أجل أن كل واحد منا لا يمكنه منع الهوى محَبة منه لنفسه ، واستصواباً واستحساناً لأفعاله ، وأن ينظر بعين العقل الخالصة المحضة إلى خلائقه وسيرته ـ لا يكاد يستبين ما فيه من المعايب ، الضرائب الذميمة ، ومتى لم يستبن ذلك فيعرفه ، لم يُقلع عنه ، إذ ليس يَشعُر به ، فضلاً عن أن يستقبحه ، ويعمل فى الإقلاع عنه ـ فينبغى أن يُسند الرجل أمره فى هذا إلى رجل عاقل كثير اللزوم له والكون معه ، ويسأله ويضرع إليه ويؤكد عليه أن يخبره بكل ما يعرفه فيه من المعايب ، ويُعلمه أن ذلك أحب الأشياء إليه وأوقعها عنده ، وأن المنّة عليه منه تعظم فى ذلك والشكر يكثر ، ويسأله أن لا يستجيبه فى ذلك ولا يجامله ، ويُعلمه أنه متى تساهل وضجّع فى شىء منه فقد أساء إليه وغَشّه ، واستوجب منه اللائمة عليه .

« فإذا أخذ الرجل المشرف يخبره ويُعلمه ما فيه ، وما ظهر ، وبان له منه .. لم يُظهر له اغتماماً ولا استخزاءً ؛ بل أظهر له سروراً بما يستمع ، وتشوُّقاً إلى مالم يستمع منه .

(١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى .

« فإن رآه فى حالٍ مّا .. قد كتمه شيئًا استحياءً منه ، أو قصّر فى العبارة عن تقبيح ذلك ، أو حسّنها .. لامه على ذلك وأظهر له اغتمامًا به ، وأعلمه أنه لا يحب ذلك منه ، ولا يريد إلا التصريح ، وإعلامه ما يراه على وجهه .

« فإن وجده فى حال أخرى قد زاد وأسرف فى تقبيح شىء رآه منه ، وتهجينه ، لم يُغضبه ذلك ؛ بل حَمَدَه عليه ، وأظهر له بِشْرًا وسرورًا بما رآه منه .

وينبغى أن يجدّد سؤال هذا المشرف عليه حالاً بعد حال .. فإن الأخلاق والضرائب الرديّة قد تحدُث بعد أن لم تكن .

وينبغى أن يستخبر ، ويستحسن ما يقول فيه جيرانه ومعاملوه وإخوانه ، وبماذا يمدحونه ، وبماذا يعيبونه .

فإن الرجل إذا سَلَكَ فى هذا المعنى هذا المسلك ، لم يكد يخفَى عليه شىء من عيوبه ، وإن قَلّ وخَفى .

فإن اتفق له ووقع عدوٌّ ، ومنازع مُحب لإظهار مساويه ومعايبه ، لم يستدرِك من قِبَله معرفة عيوبه ؛ بل اضطُرَّ وأُلجِىءَ إلى الإقلاع عنها ، إن كان ممّن لنفسه عند نفسه مقدار ، وممن يحب أن يكون خيّرًا فاضلاً ..

وقد كَتَب فى هذا المعنى « جالينوس » ـ (ح ١٣١ ـ ٢٠١ م) ـ كتابًا جعل رسْمه « فى أن الأخيار ينتفعون بأعدائهم ، فذكر فيه منافع صارت إليه من أجل عدو كان له » ، وكتب أيضاً « فى تعرف الرجل عيوب نفسه » مقالة قد ذكرنا نحن جوامعها وجملتها هنا ، وفيما ذكرنا من هذا الباب كفاية وبلاغاً ، ومن استعمله لم يزل كالقدح مقوماً مثقفاً .

* * *

العشق والإلف :

« ... أما الرجال المذكورون الكبار الهِمَم والأنفُس ، فإنهم يبعدون من هذه البليّة من نفس طبائعهم وغرائزهم ، وذلك أنه لا شيء أشد على أمثال هؤلاء من التذلل ، والخضوع ، والاستكانة ، وإظهار الفاقة ، والحاجة ، واحتمال التجنى والاستطالة .

فهم إذا فكروا فيما يلزم (**العشاق**) ـ من هذه المعانى ـ نَفَروا منه ، وتصابروا ، وأزالوا الهوى عنه ، وإن بُلُوا به ، وكذلك الذين تلزمهم أشغال وهموم بليغة اضطرارية دنيائية أو دينية .

فأما الخَنثون من الرجال والغَزِلون والفُرَّاغ والمُترفون والمُؤثرون للشهوات الذين لا يهمهم سواها ، ولا يريدون من الدنيا إلا إصابتها ، ويرون فَوتها فوتًا وأسفًا ، ومالم يقدروا عليه منها جسرة وشقاء ، فلا يكادون يتخلصون من هذه البلية ، لا سيما إن أكثروا النظر فى قصص (**العشاق**) ، ورواية الرقيق الغزِل من الشِعر ، وسماع الشجى من الألحان والغناء .

فَلنقُل الآن فى الاحتراس من هذا العارض ، والتنبيه على مَخاتِله ومكامنه ، بقدْر ما يليق بغرض مقالنا هذا .

ونقدِّم قبل ذلك كلامًا نافعًا معينًا على بلوغ غرضٍ ما مرَّ مِنْ هذا ، وما يأتى بعده ، وهو الكلام فى اللذّة ..

فنقول : إن اللذة ليست بشىء سوى إعادة ما أخرجه المؤذى عن حالته إلى حالته تلك التى كان عليها. كرجل خرج من موضع كنين ظليل ، إلى صحراء ، ثم سار فى شمس صيفية حتى مسَّه الحرّ ، ثم عاد إلى مكانه ذلك ، فإنه

لا يزال يستلذ ذلك المكان حتى يعود بدنه إلى حالته الأولى ، ثم يفقد ذلك الاستلذاذ مع عَود بدنه إلى الحالة الأولى ، وتكون شدّة التذاذه بهذا المكان بمقدار شدة إبلاغ الحرّ إليه ، وسرعة هذا المكان فى تبريده .

وبهذا المعنى حَدَّ الفلاسفة الطبيعيون اللذة ، فإن حَدَّ اللذة عندهم : هو أنها رجوع إلى الطبيعة ؛ ولأن الأذى والخروج عن الطبيعة ربما حدث قليلاً فى زمان طويل ، ثم حدث بعقبه رجوع إلى الطبيعة دفعة فى زمان قصير ، صار فى مثل هذه الحال يفوتنا الحس بالمؤذى ويتضاعف بيان الإحساس بالرجوع إلى الطبيعة ، فنسمى هذه الحال لذة ، ويظن بها مَن لا رياضة له أنها حدثت من غير أذًى تقدّمها ، ويتصورها مفردة خالصة برية من الأذى .

وليست الحال على الحقيقة كذلك ، بل ليس يمكن أن تكون لذة بتّةً إلا بمقدار ما تقدمها من أذى الخروج عن الطبيعة .

فإنه بمقدار أذى الجوع والعطش يكون الالتذاذ بالطعام والشراب ، حتى إذا عاد الجائع والعطشان إلى حالته الأولى ، لم يكن شىء أبلغ فى عذابه من إكراهه على تناولها بعد أن كانا ألذ الأشياء عنده ، وأحبها إليه .

وكذلك الحال فى سائر الملاذّ ، فإن هذا الحد بالجملة لازم لها ، ومحتوٍ عليها .. إلا أن منها ما نحتاج فى تبيين ذلك منه إلى كلام أدقّ وألطف ، وأطول من هذا .

وقد شرحنا هذا فى مقالة كتبناها « فى مائية اللذة » ، وفى هذا المقدار الذى ذكرناه هاهنا كفاية لِمَا نحتاج إليه .

وأكثر المائلين مع اللذة المنقادين لها : هُم الذين لم يعرفوها على الحقيقة ولم يتصوروا منها إلا الحالة الثانية ، أعنى التى من مبدأ انقضاء فعل المؤذِى إلى استكمال الرجوع إلى الحالة الأولى .

ومن أجل ذلك أحبوها ، وتمنوا أن لا يخلوا فى حال منها ، ولم يعلموا أن ذلك غير ممكن لأنها حالة لا تكون ولا تُعرف إلا بعد تقدُّم الأولى لها .

وأقول : إن اللذة التى يتصورها (**العشاق**) وسائر من كُلِفَ بشىء ، وأُغرم به ، كالعشاق ، للترؤُّس والتملك ، وسائر الأمور التى يفرط ، ويتمكن حبها من نفوس بعض الناس ، حتى لا يتمنوا إلا إصابتها ، ولا يروا العيش إلا مع نيلها عند تصورهم نيل مرادهم عظيمة ، مجاوزة للمقدار جداً .

وذلك أنهم إنما يتصورون إصابة المطلوب ونَيْله مع عظم ذلك فى أنفسهم من غير أن يخطر ببالهم الحالة الأولى التى هى كالطريق والمسلك إلى نيل مطلوبهم .

ولو فكروا ، ونظروا فى وعورة هذا الطريق وخشونته وصعوبته ومخاطره ومهاويه ومهالكه لَمَرَّ عليهم ما حَلاَ ، وعظُم ما صغر عندهم فى جنب ما يحتاجون إلى مقاساته ومكابدته .

وإذ قد ذكرنا جملة مائية اللذة ، وأوضحنا من أين غلط مَن تصورها محضةً بريّةً من الألم والأذى .. فإنا عائدون إلى كلامنا ، ومنبهون على مساوىء هذا العارض أعنى (**العشق**) وخساسته .

فنقول : إن العشاق يجاوزون حد البهائم فى عدم ملكة النفس ، وزّم الهوى ، وفى الانقياد للشهوات .

وذلك أنهم لم يرضوا أن يصيبوا هذه الشهوة ، أعنى لذة الباه ـ على أنها من أسمج الشهوات وأقبحها عند النفس الناطقة التى هى الإنسان على الحقيقة ـ من أى موضع يمكن إصابتها منه ، حتى أرادوها من موضع مّا بعينه ، فضموا

شـهوة إلى شهوة ، وركبوا شهوة على شهوة ، وانقـادوا ، وذلُّوا للهوى ذُلاً على ذُل ، وازدادوا له عبودية إلى عبودية .

والبهيمة لا تصير من هذا الباب إلى هذا الحد ولا تبلغه ؛ ولكنها تصيب منه مالها فى الطبع مما تطرح به عنها ألم المؤذى المهيج لها عليه لاغير ، ثم تصير إلى الراحة الكاملة منه .

وهؤلاء لَمَّا لم يقتصروا على المقدار البهيمى من الانقياد للطباع ؛ بل استعانوا بالعقل ـ الذى فَضَّلهم الله به على البهائم ، وأعطاهم إياه ، ليروا مساوىء الهوى ويزموه ويملكوه ـ فى التسلُّق على لطيف الشهوات ، وخفيِّها ، والتحيز لها والتنوُّق فيها ، وَجَب عليهم ، وحقَّ لهم ألا يبلغوا منها إلى غاية ، ولا يصيروا منها إلى راحة .

ولا يزالوا متأذين بكثرة البواعث عليها ، ومتحسرين على كثرة الفائت منها غير مغتبطين ، ولا راضين لنزوع أنفسهم عنها ، وتعلُّق أمانيهم بما فوقها ، وبما لا نهاية له منها ، بما نالوه أيضاً وقَدَرُوا عليه منها .

ونقول أيضاً : إن (العشاق) مع طاعتهم للهوى ، وإثارهم اللذة وتعبُّدهم لهـا . يحزنون من حيث يظنـون أنهم يفرحون ، ويألمون من حيث يظنون أنهم يلذّون .

وذلك أنهم لا ينالون من ملاذّهم شيئاً ، ولا يصلون إليه ، إلا بعد أن يمسّهم الهَمّ ، والجهد ، ويأخذ منهم ، ويبلغ إليهم .

وربما لم يزالوا من ذلك فى كُرَبٍ مُنصِبَة وغُصَصٍ متصـلة من غير نيل مطلوب بتة .

والكثير منهم يصير لِدوام السهر ، والهمم ، وفَقْد الغذاء إلى الجنون والوسواس ، وإلى الدِقّ والذبول ، فإذا هُم قد وقعوا من جبال اللذة وشِباكها فى الردئ المكروه ، وأدّتهم عواقبها إلى غاية الشقاء والهلكة .

وأما الذين ظنوا أنهم ينالون لذة (العشق) كَمَلاً ، ويصيبونه ممن ملكوه ، وقدروا عليه ، فقد غلطوا ، وأخطأوا خطأ بيناً .

وذلك أن اللذة إنما تكون إذا نيلت بمقدار بلاغ ألم المؤذِى الباعث عليها الداعى إليها ، ومن مَلَك شيئاً ، وقَدَر عليه . ضعف فيه . هذا الباعث الداعى ، وهدأ وسكن سريعاً .

وقد قيل قولاً حقاً صدقاً : « إن كل موجود مملوك ، وكل ممنوع مطلوب » .

ونقول أيضاً : إن مفارقة المحبوب أمر لابد منه اضطراراً بالموت ، وإن سَلِمَ مِنْ سائر حوادث الدنيا ، وعوارضها المبددة للشمل المفرقة بين الأحبة .

وإذا كان لابد من إساغة هذه الغُصَّة ، وتجرُّع هذه المرارة ، فإن تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها والانتظار لها ؛ لأن ما لابد من وقوعه متى قُدِّم أُزيح مؤونةُ الخوف منه مدة تأخيره .

وأيضاً .. فإن منع النفس من محبوبها ـ قبل أن يستحكم حبُّه ، ويرسخ فيها ويستولى عليها ـ أيسر وأسهل .

وأيضاً .. فإن (العشق) متى انضم إليه الإلف .. عَسُر النزوع عنه ، والخروج منه ، فإن بلية الإلف ليست بدون بلية (العشق) .

بل .. لو قال قائـل : إنه أوكـد ، وأبلغ منـــه ـ لم يكن مخطئاً ، ومتى قصرت مدة (العشق) ، وقل فيه لقـاء المحبوب .. كان أحرى أن لا يخالطه ، ويعاونه الإلف .

والواجب فى حُكم العقل من هذا الباب : أيضاً المبـادرة فى منع النفس ، وزمّهـا عن (العـشـــق) قبل وقوعـها فيـه ، وفطمها منه إذا وقعت قبـل استحكامه فيهـا .

وهذه الحجة .. يقال إن « فلاطن » [1] الحكيم احتج بها على تلميذٍ له ، بُلِىَ بحبِّ جـارية ، فأخلَّ بمركزه من مجلس مـدارس « فلاطن » ، فأمر أن يُطلب ، ويُؤتَى به ، فلما مثُلَ بين يديه قال : أخبرنى يا فلان هل تشك فى أنه لابد لك من مفارقة حبك هذه يوماً ما ؟ .

قال : ما أشك فى ذلك .

فقال له « فلاطن » : فاجعل تلك المرارة المتجرعة فى ذلك اليـوم فى هذا اليوم ، وأزِحْ ما بينهمـا من خوف المنتظر الباقى بحاله الذى لابد من مجيئه ، وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام ، وانضمام الإلف إليه وعَضْدِه له .

فيقال إن التلميذ قال لفلاطن : إن ما تقول أيها السيد الحكيم حق ؛ لكنى أجد انتظارى له سلوةً بمرور الأيام عنى أخفّ علىّ .

فقال له « فـلاطن » : وكيف وثقت بسـلوة الأيـام ، ولم تَخَفْ إلفـها ، ولِمَ أمنتَ أن تأتيك الحالة المفرِّقة قبل السلوة ، وبعد الاستحكام ، فتشتد بك الغُصّة ، وتتضاعف عليك المرارة .

---

(١) « أفلاطون » ـ (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م) .

فيقال إن ذلك الرجل سجد فى تلك الساعة لفلاطن ، وشكره ، ودعا له ، وأثنى عليه ، ولم يعاود شيئاً مما كان فيه ، ولم يَظهر منه حزن ولا شوق ، ولم يزل بعد ذلك لازماً لمجالس « فلاطن » غير مُخِلٍّ بها بتّة .

ويقال إن « فلاطن » أقبل بعد فراغه من هذا الكلام على وجوه تلامذته فلامهم ، وعذلهم فى تركهم وإطلاقهم هذا الرجل ، وصرّفَ كل همّته إلى سائر أبواب الفلسفة قبل إصلاح نفسه الشهوانية ، وقمعها وتذليلها للنفس الناطقة .

ولأن قوماً رُعْناً يعاندون ويناصبون الفلاسفة فى هذا المعنى بكلام سخيف ركيك كسخافتهم وركاكتهم ـ وهؤلاء هم الموسومون بالظُّرف والأدب ـ فإنا نذكر ما يأتون به فى هذا المعنى ونقول فيه من بعده .

إن هؤلاء القوم يقولون : إن (العشق) إنما تعتاده الطبائع الرقيقة والأذهان اللطيفة ، وإنه يدعو إلى النظافة واللباقة والزينة والهيئة .

ويُشيعون هذا ونحوه من كلامهم بالغزل من الشعر البليغ فى هذا المعنى ، ويحتجون بمن عشق من الأدباء ، والشعراء ، والسراة ، والرؤساء ، ويتخطونهم إلى الأنبيـــاء .

ونحن نقول : إن رقّة الطبع ، ولطافة الذهن ، وصفاءه يُعرَفان ، ويُعتبران بإشراف أصحابهما على الأمور الغامضة البعيدة ، والعلوم اللطيفة الدقيقة ، وتبين الأشياء المشكلة الملتبسة ، واستخراج الصناعات المُجْدِية النافعة .

ونحن نجد هذه الأمور مع الفلاسفة فقط ، ونرى العشق لا يعتادهم ويعتاد اعتياداً كثيراً دائماً أجلاف الأعراب والأكراد والأعلاج والأنباط .

ونجد أيضاً من الأمر العام الكلّى .. أنه ليست أمة من الأمم أرق فطنةً ، وأظهر حِكْمة من اليونانيين .

ونجد (**العشق**) فى جملتهم أقل مما فى جملة سائر الأمم ، وهذا يوجب ضد ما ادعوه ، أعنى أنه يوجب أن يكون (**العشق**) إنما يعتاد أصحاب الطبائع الغليظة والأذهان البليدة .

ومن قَلَّ فِكره ونظَره ورويّته .. بادر إلى الهجوم على ما دعته إليه نفسه ، ومالت به إليه شهوته .

وأما احتجاجهم بكثرة مَنْ عَشِقَ من الأدباء ، والشعراء ، والسراة ، والرؤساء فإنا نقول : إن السرو ، والرياسة ، والشعر ، والفصاحة ليست مما لا يوجد أبداً إلا مع كمال العقل والحكمة .

وإذا كان الأمر كذلك . أمكن أن يكون (**العشاق**) من هؤلاء من أهل النقص فى عقولهم وحكمتهم .

وهؤلاء القوم ـ لجهلهم ورعونتهم ـ يحسبون أن العلم والحكمة ، إنما هو النحو والشعر والفصاحة والبلاغة .

ولا يعلمون أن الحكماء لا يَعُدّون ولا واحداً من هذه حِكمة ، ولا الحاذق بها حكيماً ؛ بل الحكيم عندهم من عرف شروط البرهان وقوانينه واستدرك ، وبَلَغ من العلم الرياضى والطبيعى ، والعِلْم الإلهى مقدار ما فى وِسْع الإنسان بلوغه .

ولقد شهدتُ ذات يوم رجلاً من متحذلقيهم عند بعض مشايخنا بمدينة السلام ، وكان لهذا الشيخ ـ مع فلسفته ـ حظ وافر من المعرفة بالنحو واللغة والشعر ، وهو يجاريه وينشده ، ويبذخ ويشمخ فى خلال ذلك بأنفه ، ويُطنب ،

ويبالغ فى مدح أهل صناعته ، ويرذل مَن سواهم ، والشيخ فى كل ذلك يحتمله معرفة منه بجهله وعجبه ويتبسم إلى أن قال فيما قال :

ـ « هذا والله العلم وما سواه ريح » ..

فقال له الشيخ : يا بُنى .. هذا عِلْم من لا عِلْم له ، ويفرح به من لا عَقْل له .

ثم أقبل علىّ وقال : سَلْ فتانا هذا عن شىء من مبادئ العلوم الاضطرارية ، فإنه ممن يرى أن من مهر فى اللغة يمكنه الجواب عن جميع ما يُسئل عنه .

فقلت : خبِّرنى عن العلوم اضطرارية هى أم اصطلاحية ؟ ولم أُتمم التقسيم على تعمد .

فبادر فقال : العلوم كلها اصطلاحية .

وذلك أنه كان سمع أصحابنا يعيرون هذه العصابة أن علمهم اصطلاحى ، فأحب أن يعيبهم بمثل ما عابوه جهلاً منه بما لهم دونه فى هذا الباب .

فقلت له : فمن علم أن القمر ينكسف ليلة كذا وكذا ، وأن السقمونيا يُطلق البطن متى أُخذ ، وأن « المرداسنج » يذهب بحموضة الخل متى سُحق وطُرح فيه ، إنما صح له علم ذلك من اصطلاح الناس عليه ؟ .

فقال : لا .

فقلت : فمن أين علُم ذلك ؟ فلم يكن فيه من الفضل ما يبين عما به نحوتُ .

ثم قال : فإني أقول إنها كلها اضطرارية ، ظناً منه وحسبانا أنه يتهيأ له أن يُدرج النحو فى العلوم الاضطرارية .

فقلت له : خبِّرني عمن عُلم أن المنادى بالنداء المفرد مرفوع ، وأن المنادى بالنداء المضاف منصوب ، أُعلم أمراً اضطرارياً طبيعياً ، أم شيئاً مصطلحاً باجتماع من بعض الناس عليه دون بعض ؟ .

فلجلج بأشياء يروم بها أن يُثبت أن هذا الأمر اضطرارى مما كان يسمعه من أستاذيْه ، فأقبلت أُريه تداعيه وتهافُته ، مع مالحقه من استحياء ، وخجل شديد ، واغتمام .

وأقبل الشيخ يتضاحك ويقول له : ذُق يا بنىّ طَعم العِلْم الذى هو على الحقيقة علم .

وإنما ذكرنا من هذه القصة ما ذكرنا ليكون أيضاً من بعض المنبهات والدواعى إلى الأمر الأفضل ، إذ ليس لنا غرض فى هذا الكتاب إلا ذاك ، ولسنا نقصد ـ بما مر من كلامنا هذا من الاستجهال والاستنقاص ـ لجميع من عُنى بالنحو والعربية ، واشتغل بهما وأخذ منهما ، فإن فيهم من قد جمع الله له إلى ذلك حظاً وافراً من العلوم ؛ بل للجهال من هؤلاء الذين لا يرون أن علماً موجوداً سواهما ، ولا أن أحداً يستحق أن يُسمَّى عالماً إلا بهما ، وقد بقى علينا من حجاج القوم شىء لم نَقُل فيه قولاً ، وهو احتجاجهم لتحسين (العشق) بالأنبياء وما بُلُوا به منه . فنقول : إنه ليس من أحد يستجيز أن يُعَدّ (العشق) منقبةً من مناقب الأنبياء ، ولا فضيلة من فضائلهم ، ولا أنه شىء آثروه واستحسنوه ؛ بل إنما يُعَدّ هَفوةً وزَلّةً من هفواتهم وزلاّتهم .

وإذا كان ذلك كذلك .. فليس لتحسينه ، وتزيينه ، ومدحه ، وترويجه بهم وجه بتّةً ؛ لأنه إنما ينبغى لنا أن نحث أنفسنا ، ونبعثها من أفعال الرجال الفاضلين على مارضوه لأنفسهم ، واستحسنوه لها ، وأحبوا أن يُقتدى بهم فيه ، لا على هفواتهم وزاداتهم ، وماتابوا منــه ، وندموا عليه ، وودّوا أن لا يكون ذلك جرى عليهم ، وكان منهم .

فأما قولهم :

إن (العشق) يدعو إلى النظافة واللباقة والهيئة والزينة .. فما يصنع بجمال الجسد مع قُبح النفس ، وهل يحتــاج إلى الجمـــال الجســمانى ، ويجتهد فيه إلا النساء ، وذوو الخُنث من الرجال ؟ .

ويقال : إن رجلاً دعا بعض الحكماء إلى منزله ، وكان كل شيء له من آلة المنزل على غاية السرو ، والحسن ، وكان الرجل فى نفسه على غاية الجهل والبله والفدامة .

ويقال : إن ذلك الحكيم تأمل كل شيء فى منزله .. ثم إنه بصق على الرجل نفســـه .

فلما استشاط وغضب من ذلك .. قال له : لا تغضب ، فإنى تأملت جميع ما فى منزلك ، وتفقدته ، فلم أَرَ فيه أسمج ، ولا أرذل من نفسك ، فجعلتها موضعاً للبصاق باستحقاق منها لذلك .

ويقال : إن ذلك الرجل بعد ذلك استخف بما كان فيه ، وحرص على العلم والنظـــر .

ولأنّا قد ذكرنا فيما مرّ من كلامنا قُبَيْلُ الإلف .. فإنا قائلون فى مائيته ، والاحتراس منه بعض القول ، فنقول : إن الإلف هو ما يحدث فى النفس عن طول الصحبة من كراهة مفارقة المصحوب ، وهى أيضاً بَلِيّة عظيمة تنمّى وتزداد على الأيام ، ولا يحس بها إلا عند مفارقة المصحوب ، ثم يظهر منها حينئذ دفعةً أمر مؤذٍ ، مؤلم للنفس جداً .

وهذا العارض يعرض للبهائم أيضاً ، إلا أنه فى بعضها أوكد منه فى بعض والاحتراس منه يكون بالتعرض لمفارقة المصحوب حالاً بعد حال ، وأن لا يُنسى ذلك ويُغفل البتة .. بل تُدرَّج نفسه إليه وتُمرَّن عليه .

وقد بينا من هذا الباب ما فيه كفاية .

* * *

(حـول رسـالـة)

(العشـق .. عند « الرازى »)

يرى « أبو بكر محمد بن زكريا الرازى » ـ (٢٥١ ـ ٣١٣ هـ / ٨٦٥ ـ ٩٢٥ م) :

أن الحب ، أو العشق كما يسميه ، حالة يتجاوز فيها العشاق .

ـ « .. حـد البـهـائم من عـدم مَلَكة النَّفْس ، وزم الهـوى ، وفى الانقيـاد للشهوات ، وذلك أنهم لم يرضوا أن يصيبوا هذه الشهوة ، أعنى لذة (الباه) ... من أى موضع يمكن إصابتها منه ، حتى أرادوها من موضع ما بعينه ، فضموا شهوة إلى شهوة ، وركبوا شهوة على شهوة ، وانقادوا وذلوا للهوى ذُلاً على ذل وازدادوا له عبودية على عبودية » .

« وهؤلاء لما لم يقتصروا على المقدار البهيمى من الانقياد للطباع .. بل استعانوا بالعقل ـ الذى فضّلهم الله به على البهائم ، وأعطاهم إياه ليروا مساوئ الهوى ، ويزموه ، ويملكوه ـ فى التسلق على لطيف الشهوات وخفيّها والتحبز لها والتتوق فيها ، وجب عليهم ، وحق لهم ألا يبلغوا منها إلى غاية ، ولا يصيروا منها إلى راحة » .

* * *

لم يمنع طائفة من الأدباء أن تتخاصم مع طائفة من الفلاسفة حول (العشـق) .

وقد حفظ لنا « أبو بكر الرازى » فى بعض رسائله لقطات من هذا الخصام على جانب كبير من الطرافة .

وقد مثل « أبو بكر » نفسه الفلاسفة فى هذا الخصام إذ يقول :

ـ « ولأن قوماً رُعناً يعاندون الفلاسفة فى هذا المعنى بكلام سخيف ركيك كسخافتهم وركاكتهم ـ وهؤلاء هم الموسومون بالظُّرف والأدب ـ فإنا نذكر ما يأتون به فى هذا المعنى ، ونقول فيه من بعده .

إن هؤلاء القوم يقولون : « إن (العشق) إنما تعتاده الطبائع الرقيقة ، والأذهان اللطيفة .. وأنه يدعو إلى النظافة واللباقة ، والزينة ، والهيئة ، ويشيعون هذا ونحوه من كلامهم بالغَزَل من الشعر البليغ فى هذا المعنى ، ويحتجُّون بمن (عشق) من الأدباء ، والشعراء ، والسراة ، والرؤساء ، ويتخوطونهم إلى الأنبياء » .

ونحن نقول : إن رقّة الطبع ، ولطافة الذهن ، وصفاءه .. يعرفان ويعبران بأشراف أصحابهما على الأمور الغامضة البعيدة ، والعلوم اللطيفة الدقيقة ، وتبين الأشياء المشكلة الملتبسة ، واستخراج الصناعات المُجْدية النافعة .

ونحن نجد هذه الأمور مع الفلاسفة فقط .

ونرى (العشق) لا يعتادهم ، ويعتاد اعتياداً كثيراً دائماً أجلاف الأعراب ، والأكراد ، والأعلاج ، والأنباط .

ونجد أيضاً ـ من الأمر الكلى العام أنه ندر من الأمم من أرق فطنة ، وأظهر حكمة من اليونانيين .

ونجد (العشق) فى جملتهم أقل مما فى جملة سائر الأمم .

وهذا يوجب ضد ما أدعوه ، وأعنى أنه يوجب أن يكون (العشق) إنما يعتاد أصحاب الطبائع الغليظة ، والأذهان البليدة .

ومن قَلَّ فكره ونظره ورويته .. بادر إلى الهجوم على مادعته إليه نفسه ، ومالت به إليه شهوته .

و « الرازى » ينتهى من استدلاله إلى مقارنة (العشق) لبلادة الذهن ، ومفارقته للطافته . وكأنه يقيم مناظرته بين الفلسفة والشعر .

ويرد احتجاج الأدباء بكثرة من (عشق) مِنَ الأدباء والشعراء والسراة ، والرؤساء بقوله :

ـ « إن السرو ، والرياسة ، والشعر ، والفصاحة ليست مما لايوجد أبداً إلا مع كمال العقل والحكمة .

« وإذا كان الأمر كذلك ، أمكن أن يكون (العشاق) من هؤلاء من أهل النقص فى عقولهم وحكمتهم ، وهؤلاء القوم لجهلهم ورعونتهم يحسبون أن العلم والحكمة إنما هو النحو ، والشعر ، والفصاحة ، والبلاغة ، ولايعلمون أن الحكماء لايعدون ولا واحداً من هذه حكمة ، ولا الحاذق بها حكيماً ؛ بل الحكيم عندهم من عرف شروط البرهان وقوانينه ، واستدرك ، وبلغ من العلم الرياضى والطبيعى والعلم الإلهى مقدار ما فى وسع الإنسان بلوغه » .

أما احتجاج الأدباء بالأنبياء لتحسين (العشق) ، وما بُلُوا به منه ، فيردّه بقوله :

ـ « أنه ليس من أحد يستجيز أن يعد (العشق) منقبة من مناقب الأنبياء ، ولا فضيلة من فضائلهم ، ولا أنه شىء آثروه ، واستحسنوه ؛ بل أنه إنما يعد هفوة وزلة من هفواتهم وزلاتهم .

وإذا كان ذلك كذلك .. فليس لتحسينه ، وتزيينه ، ومنحه ، وترويجه بهم وجه بتة ؛ لأنه إنما ينبغى لنا أن نحث أنفسنا ونبعثها من أفعال الرجال الفاضلين على مارضوه لأنفسهم ، واستحسنوه لها ، وأحبوا أن يُقْتَدَى بهم فيه ، لا على هفواتهم وزلاتهم ، وما تابوا منه وندموا عليه ، وودُّوا أن لايكون ذلك جرى عليهم وكان منهم » .

ويرد على قولهم : « أن (العشق) يدعو إلى النظافة ، واللباقة ، والهيئة ، والزينة بقوله :

ـ « فما يُصنع بجمال الجسد مع قبيح النفس ؟ وهل يحتاج إلى الجمال الجسمانى ، ويجتهد فيه إلا النساء ، وذوو الخنث من الرجال ؟ » .

وكما يحذِّر الفلاسفة (العشق) ويرون فيه تسلطاً للنفس الشهوانية على النفس الناطقة ، فإنهم يحذرون كذلك من الإلف الذى يحدث فى النفس عن طول الصحبة من كراهة مفارقة المصحوب ، ويرونه بلية عظيمة تنمى وتزداد على الأيام ، ولا يحس بها إلا عند مفارقة المصحوب .

وفى هذا يقول الرازى :

ـ « إن مفارقة المحبوب أمر لابد منه اضطراراً بالموت ، وإن سلم من سائر حوادث الدنيا وعوارضها المبددة للشمل المفرقة بين الأحبة .

« وإذا كان لابد من إساغة هذه الغصة ، وتجرع هذه المرارة ، فإن تقديمها ، والراحة منها ، أصلح من تأخيرها والانتظار لها ؛ لأن ما لابد من وقوعه متى قُدم أزيح مؤونة الخوف منه مدة تأخيره .

« وأيضاً .. فإن منْع النفس من محبوبها قبل أن يستحكم حبه ويرسخ فيها ، ويستولى عليها .. أيسر وأسهل .

« وأيضاً .. فإن (العشق) متى انضم إليه الإلف ، عسر النزوع عنه ، والخروج منه .

« فإن بلية الإلف ليست بدون بلية (العشق) ؛ بل لوقال قائل أنه أوكد وأبلغ منه ، لم يكن مخطئاً .

« ومتى قصرت مدة العشق ، وقل فيه لقاء المحبوب .. كان أحرى أن لا يخالطه ، ويعاونه الإلف .

والواجب فى حكم العقل : المبادرة فى منع النفس وزمها عن (العشق) قبل وقوعها فيه ، وفطمها منه إذا وقعت قبل استحكامه فيها .

* * *

ويحتج لرأيه هذا فى فطم النفس عن العشق بما احتج به « أفلاطون » على تلميذ له بُلِىَ بحُب جارية . فأخَلّ الحب به ، وبمركزه من مجلس أستاذه ، فأمر « أفلاطون » بأن يؤتَى به .

فلما مَثَل بين يديه قال : « أخبرنى يا فلان ، هل تشك فى أنه لابد لك من مفارقة أحبّتِكَ هذه يوماً ما » ؟ .

قال : « ما أشُكُّ فى ذلك » .

فقال له أفلاطون : « فاجعل تلك المرارة المتجرعة فى ذلك اليوم فى هذا اليوم ، وأزح ما بينهما من خوف المنتظر الباقى ، بحاله الذى لابد من مجيئه ، وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام ، وانضمام الإلف إليه وعضده له ! » .

فقال التلميذ : « إن ما تقول أيها السيد الحكيم حق ؛ لكنى أجد انتظارى له سلوة بمرور الأيام عنى أخف علىّ » .

فقال أفلاطون : « وكيف وثقت بسلوة الأيام ، ولم تَخَف إلفها ؟ ولِمَ أمنت أن تأتيك الحالة المفرقة قبل السلوة وبعد الاستحكام ، فتشتد بك الغصة ، وتتضاعف عليك المرارة ؟ » .

فرضخ الرجل حينئذ لأفلاطون ، وشكر له ، وأثنى عليه ، ولم يعاود شيئاً مما كان فيه ، ولم يظهر منه حُزن ولا شوق ، ولم يزل بعد ذلك لازماً لمجلس « أفلاطون » ، غير مُخل به البتة .

وأقبل « أفلاطون » بعد فراغه من هذا الكلام على وجوه تلاميذه فلامهم ، وعذلهم في تركهم وإطلاقهم هذا الرجل ، وصرف كل همته إلى سائر أبواب الفلسفة قبل إصلاح نفسه الشهوانية ، وقمعها ، وتذليلها للنفس الناطقة .

* * *

وهكذا لا يرى الفلاسفة عشقاً يمكن أن يوجد في قلوبهم إلا للحكمة وحدها .

ذلك أن « العشاق » يجاوزون حد البهائم في عدم ملكة النفس ، وزم الهوى ، والانقياد إلى الشهوات .

وعلى الرجال الكبار الهمم والأنفس : أن يبعدوا من هذه البلية من نفس طبائعهم وغرائزهم .. إذ لا شيء أشد على أمثال هؤلاء من التذلل ، والخضوع ، والاستكانة ، وإظهار الفاقة، والحاجة ، واحتمال التجني ، والاستطالة .

فهم إذا فكروا فيما يلزم (العشاق) من هذه المعاني ، نفروا منه ، وتصابروا ، وأزالوا الهوى عنه ، وأن بُلُوا به .

وكذلك الذين تلزمهم أشغال وهموم بليغة اضطرارية دنيوية أو دينية ، فأما الخنثون من الرجال ، والغزلون ، والفراغ ، والمترفون ، والمؤثرون للشهوات الذين لا يهمهم سواها ، ولا يريدون من الدنيا إلا إصابتها ، ويرون فوتها فوتًا وأسفًا ، وما لم يقدروا عليه منها حسرة وشقاء ـ فلا يكادون يتخلصون من هذه البلية ، ولا سيما إن أكثروا النظر فى قصص (العشاق) ، ورواية الرقيق الغزل من الشعر ، وسماع الشجى من الألحان والغناء .

وهذا ما يراه الفلاسفة فى (العشق) !! .

* * *

(حول رسـالة العشق)

* يقول المستشرق « لويس إنيتاجفن » :

ـ « إن رسالة العشق ـ عند ابن سينا ـ إنما تعالج العشق معالجة فلسفية ، حيث اعتبر (ابن سينا) العشق مبدأ كلياً عاماً للموجودات ، وغير الحية » .

* * *

* وقد أُعجب الأب « اسكندر ديتومى » باتجـاه « ابن سـينا » فى هـذه الرسالة ، وذهب إلى القول بأن جذور الحُب العفيف لا يجب أن نبحث عنها فى الأدب العربى .. إنما يجب الكشف عنها فى الفلسفة العربية ، وعلى وجه التحديد فى رسالة (العشق) لابن سينا .

* وقد أوضح « ديتومى » أن « ابن سينا » ـ فى رسالته هذه ـ قد أعطى الحب البشرى ـ أى العشق ـ القُوَى الحيوانية دوراً إيجابياً يسهم فى توجيه النفس نحو الحُب الإلهى ، أو الاتحاد مع الله .

ويرجع ذلك إلى أن « ابن سينا » قد استطاع ، فى هذه الرسالة ، أن يتغلب على الهوة التى تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة فى الإنسان ، وبذلك استطاع أن يصل بين الحب الطبيعى ، والحب الروحى .

وهو بذلك أعطى للنفس الدنيا قـدْراً من المشاركة مع النفس الناطقة العاقلة ـ فجعـل حُب الجمـال الظاهرى ـ أى الحب الحسى ـ عـوناً فى الاقتراب من الله ؛ لأنه متى انضمت النفس الحيوانية إلى النفس الناطقة ، اكتسبت من اتحادها هذا بتلك القوة السامية سمواً وشرفاً .

أى أن « ابن سينا » فى رسالة (ماهية العشق) يحاول أن يكون موجهاً ، وعادياً للنفس الإنسـانية ، آخـذاً بها إلى أرفع مستوى من التعفف والصفاء والنقـاء ، فيقـول :

ـ إن الإنسان إذا أحب الصورة المستحسنة لأجل لذة حيوانية ، فهو مستحق اللوم ، بل الملامات والإثم .

أما من أحب الصورة المليحة باعتبار عقلى .. عد ذلك وسيلة إلى الرفعة ، والزيـادة فى الخـيرية لولوعـه بما هـو أقرب فى التأثير الأول ، والمعشـوق المحض ، وأشبه بالأمـور العـالية الشريف ، وذلك مما يؤهلـه لأن يكون ظريفاً ، وفتى لطيفاً .

ولذلك لا يكاد أهل الفطنة من الظرفـاء والحكمـاء ممن لا يسلك طريقـة المتعشقين والاقحاح ، يوجد خالياً عن شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية .

وذلك أن الإنسان مع ما فيه من زيادة فضيلة الإنسانية إذ وجد فائزاً بفضيلة اعتدال الصورة التى هى مستفادة من تقويم الطبيعة ، واعتدالها ، وظهور أثر إلهى فيها جداً .. استحق لأن ينتحل من ثمرة الفؤاد مخزونها ، ومن أصفى صفاء الوداد أطيبه ومكنونه .

ولذلك قال النبى ﷺ :

ـ « **اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه** » .

(رواه البخارى فى التاريخ وغيره) .

نصاً منه أن حُسن الصورة لا يوجد إلا عند جودة التركيب الطبيعى ، وأن جـودة الاعتـدال فى التـركيب ، مما يفيـد طيباً فى الشـمائل ، وعـذوبـة فى السـجايـا » .

« فابن سينا » بعد أن أكد سريان قوة العشق فى جميع الموجودات ، وأن العشق أمر طبيعى غريزى فى الهويات ، ذهب إلى البحث فى علّة العشق ، وأكد أن سببها الجمال ، حيث عرف العشق بأنه استحسان الحسن الملائم ؛ ولهذا كانت الوجوه الحسنة عنده سبب الحب ، وطلبه ؛ لأن النفس بطبيعتها ميالة إلى عشق الصور الجميلة الحسنة .

ومع هذا حرص « ابن سينا » على ترقية حس النفس وذوقها ، والارتفاع بمستواها عن الدنايا والقبائح بخضوع القوى الحيوانية فى النفس الإنسانية ، والمتمثلة فى حب الملذات المادية للقوى الناطقة العاقلة .

وبهذا يكون الحب والعشق نقياً طاهراً .

يقول « ابن سينا » فى هذا الصدد :

« إن النفس النطقية والحيوانية أيضاً لجوارها للنطقية أبداً تعشقان كل شيء : حسن النظم ، والتأليف ، والاعتدال مثل : المسموعات الموزونة وزناً متناسبًا ، والمذوقات المركبة من أطعمة مختلفة بحسب التناسب ، وما شابه ذلك .

وأما النفس الحيوانية فبنوع توليد طبيعى .

وأما النفس الناطقة فإنها إذا سعدت بتصور المعانى العالية على الطبيعة ، وعرفت أنه كلما قرب من المعشوق الأول ، فهو أقدم نظاماً ، وأحسن اعتدالاً .

وبالعكس أن ما يليه وفر بالوحدة وتوابعها كالاعتدال ، والإنفاق ، وما يبعد عنه . أقرب إلى الكثرة وتوابعها .. كالتفاوت ، والاختلاف على ما أوضحه الإلهيون .

فمهما ظفرت بشيء من حُسن التركيب ، لاحظته بعين المشقة .

فإذا تقرر هذه المقدمات فنقول : إن من شأن العاقل : الولوع بالمنظر الحسن من الناس .

وقد يعزّ ذلك منه فى بعض الأحيان تظرفًا وفتوة ، وهذا الشأن إما أن يختص بالقوة الحيوانية ، وإما أن يختص بحسب الشركة ؛ لكنه لو كان مختصاً بالقوة الحيوانية لما عده العقلاء تظرفًا وفتوة .. إذ من الحق أن الشهوات الحيوانية إذا تناولها الإنسان تناولاً حيوانيًا ، فهو متعرض للنقيصة ، ومضرة بالنفس المنطقية ، ولا هو مما يختص بالنفس المنطقية ، إذ مقتضيات شغلها هى الكليات العقلية الأبدية ، لا الجزئيات الحسية الفاسدة .

« فابن سينا » يحرص على تحليل النفس تحليلاً دقيقًا لمعرفة طبيعتها ، وبيان مطالبها من حُب الجمال ، والولوع بالحسن ، ثم لتؤكد توافقها ووحدتها وانسجامها فى طلبها الخير والكمال الذى هو معشوقها الأول ، والمسبب لطفها وبهاءها وسعادتها ونعيمها .

حقًا لقد امتعنا « ابن سينا » فى حديثة عن العشق ، ونظرته الكلية الشاملة لهذا الموضوع الحيوى الهام الذى هو سر الوجود وأصله .

ولهذا .. كانت فلسفة الحب عنده موضع تقدير الباحثين والدارسين ، ولقد كان اهتمامه بهذا الجانب فاتحة خير على المفكرين المسلمين الذين عنوا بدراسة الحب ، وبحثوا فى ماهية العشق كحقيقة واقعية تشمل الإنسانية كلها .. بل كل الموجودات جميعها .

* * *

رسالة الرئيس
فى العشق

* قال الرئيس « عبد الله بن سينا » (٣٧٠ _ ٤٢٨هـ / ٩٨٠ _ ١٠٣٦م) :

سألت _ أسعدك الله _ يا « أبا عبد الله الفقيه المعصومى [١] . أن أجمع رسالة تتضمن إيضاح القول فى (العشق) على سبيل الإيجاز .. فأجبتك _ لازلت طالبًا للخيرات _ توخيًا لمرضاتك ، وقضاءً لمرامك .. وجعلت رسالتى [٢] متضمنة فصولاً سبعة :

الفصل الأول : **فى ذِكْر سريان قوة العشق فى كل واحد من الهويات .**

الفصل الثانى : **فى ذِكْر وجود العشق فى الجواهر البسيطة الغير الحية .**

الفصل الثالث : **فى ذِكْر وجود العشق فى الموجودات النباتية ذوات القوة المغذية ، من جهة قواها المغذية .**

الفصل الرابع : **فى ذِكْر وجود العشق فى الجواهر الحيوانية من حيث لها القوة الحيوانية .**

الفصل الخامس : **فى ذِكْر عشق الظرفاء ، والفتيان .. للأوجه الحسان ..**

---

(١) هو الفقيه « أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد المعصومى » الذى كان « ابن سينا » يقول له : أنت مِنّى بمنزلة « أرسطو » من « أفلاطون » .

(٢) وقد حققت هذه الرسالة على المخطوطات والنشرات التالية :

(أ) نسخة مصورة عن المتحف البريطانى _ دار الكتب تحت رقم ٣٩٩ فلسفة . =

الفصل السادس : **في ذِكْر عشق النفوس الإلهية .**

الفـصل السـابع : **في خاتمة الفصول .**

* * *

= (ب) طبعة مهرن الأولى فى (لايدن) سنة ١٨٩٤ .

(جـ) طبعة مهرن الأولى فى (لايدن) سنة ١٨٩٩ .

(د) طبعة مصر سنة ١٩١٧ ضمن مجموعة « جامع البدائع » .

(هـ) نسخة مصـدرة عن مكتبة « أحمد الثـالـث » محفوظـة ضمن مخطوطات جامعة الدول العربية ـ وقد سُمِّيت الرسالة هكذا : « رسالة فى العشق كتبها (ابن سينا) للفقيه » أبى عبد الله محمد بن عبد الله ابن أحمد المعصومى » وفى بعض النسـخ (المعصرى) (المتوفى حـوالى سـنة ٤٦٠ هـ / نحو ١٠٦٨ م) .

ومن كتبه : (المفارقات) و (إعداد العقول والأفلاك وترتيب المبدعات) .

الفصل الأول

(فى ذِكْر سريان قوة العشق فى كل واحد من الهويات)

كل واحد من الهويات (١) المدبرة لما كان بطبعه نازعًا إلى كماله الذى هو خيرية هويته المنبعثة عن هوية الخير المحض ، نافرًا عن النقص الخاص به الذى هو شريته (٢) الهيولانية والعدمية – إذ كل شر فمن علائق الهيولى(٣) والعدم(٤).

فبين أن لكل واحد من الموجودات المدبرة شوقًا طبيعيًا ، وعشقًا غريزيًا ، ويلزم ضرورة أن يكون العشق فى هذه الأشياء سببًا للوجود لها ؛ لأن كل واحد مما يعبر عنه مترتب تحت أمور ثلاثة :

إما أن يكون حائزًا لخالص الكمال .

أو ممنوًا بغاية النقص .

أو مترددًا بين الحالتين ، حاصل الذات على مرتبة التوسط بين أمرين ، ثم إن البالغ فى النقص غايته هو المنتهى إلى مطلق العدم ، والمستوفى لجميع علائقه ، فبالحرى أن يُطلق عليه معنى العدم المطلق .

ثم الحقيق بإطلاق العدمية عليه ، وإن استحق أن يعد فى عداد الموجودات عند تقسيم ، أو توهم ، فلن يعد وجوده وجودًا ذاتيًا ؛ بل لن يستجاز عليه

---

(١) مقولة تعبر عن تساوى وتماثل موضوع أو ظاهرة ما مع ذاته ، أو تساوى موضوعات عديدة ، فالموضوعات (أ) و (ب) يكونان متطابقين من حيث الهوية .

(٢) شريته : طريقته .

(٣) الهيولى ، جمعها : هيوليات ، وهى المادة الأولى ، والنسبة إليه : هيولى ، وهيولانى وهى يونانية .

(٤) العدم : الفقد .

إطلاق الوجـود إلا بالمجـــاز ، ولن يتعـــرض لاعتـداده من جمـلة الموجـودات إلا بالعـرض .

فإن الموجودات الحقيقية : إما أن تكون موجودات مستعدة لنهاية الكمال ، أو موصوفة بالتردد بين نقص عارض من جهة ما ، وكمال موجود بالطبع .

فإذن جملة الموجودات لا تعرى عن ملابسة كمال ما ، وملابستها له بعشق ، ونزوع في طبيعتها إلى ما توجد متأحدة بكمالها ، ملازمة لها .

ومما يوضح ذلك من جهة العِلّة [1] واللمية [2] : أن كل واحد من الهويات المدبرة لما لا يخلو عن كمال خاص به ، ولم يكن مكتفياً بذاته لوجود كمالاته ، إذ كمالات الهويات المدبرة مستفاضة من فيض الكامل بالذات .

ولم يَجُزْ أن يتوهم أن هذا المبدأ المقيد للكمال يقصد بالإفادة واحداً واحداً من جزئيات الهويات على ما أوضحته الفلاسفة .

فمن الواجب فى حكمته ، وحُسن تدبيره : أن يغرز فيه عشقاً كلياً حتى يصير بذلك مستحفظاً لما نال من فيض الكمالات ، ونازعاً إلى الإيجـاد لها عند فقدانها ؛ ليجرى به أمر السياسة على النظام الحكمى .

فواجب إذن .. وجود هذا العشق فى جميع الموجودات المدبرة وجوداً غير مفارق البتة ، وإلا لاحتاجت إلى عشق آخر يستحفظ هذا العشق الكلى عند وجوده إشفاقا من عدمه ، ويسترده عند فوته قلقاً لبعـده ، وصار أحـد العشقين معطلاً لا طائل له ، ووجود المعطل فى الطبيعة أعنى الوضع الإلهى باطل .

---

(١) العلة : السبب .. أو : السببية .
(٢) اللمية : الشديدة .

على أنه لا عشق له خارجاً عن العشق المطلق الكلى .

فإذن وجود كل واحد من المدبرات بعشق غريزى فيه ، ولنجعل لهمتنا فى هذا المرام مرقَى أعلى مما قدمناه ، ولنفحص عن الموجود العالى عن التصرف تحت تدبير مدبر ـ لعِظَم شأنه ـ فنقول :

ـ « إن الخير بذاته معشوق ، ولولا ذلك لما نصب كل واحد ممن يشتهى ، أو يتوخى ، أو يعمل عملاً : غرضاً أمامه يتصور خيريته .

« فلولا أن الخيرية بذاتها معشوقة ، لما اقتصرت الهِمَم على إيثار الخير فى جميع التصرفات » .

« ولذلك الخير عاشق للخير ؛ لأن العشق ليس فى الحقيقة إلا استحسان الحسن والملائم جداً ، وهذا العشق هو مبدأ النزوع إليه عند غيبوبته ، إن كان مما يباين ، والتأحد به عند وجوده .

« ثم إن كل واحد من الموجودات يستحسن ما يلائمه ، وينزع إليه مفقوداً .

والخير الخاص : هو الملائم للشىء فى الحقيقة أو الحسبان .. ثم الاستحسان والنزاع والاستقباح .. أو النفرة فى الموجود من علائق خيريته ؛ لأنها لا تُطلق على الوجود على وجه الاستصواب بالذات إلا من جهة خيريته ؛ لأن الصواب إذا وجد عن الشىء بالذات ، فهو لسداده وخيريته .

فبيّن أن الخير يُعشق بما هو خير له : إما الخاص به ، وإما المشترك .

وعلّة العشق هو لما قد نيل ، أو لما سينال منه ـ أى من جملة المعشوق .

وكلما زادت الخيرية ، زاد استحقاق المعشوقية ، وزادت العاشقية للخير .

وإذا تقرر هـذا . فنقول : إن الموجود المقـدس عن الوقوع تحت التدبير إذ هو الغاية فى الخيرية ، هو الغاية فى المعشوقية ، والغاية فى عاشقيته ، الغاية فى معشوقيته .

أعنى بذلك ذاته العالى المقدس تعالى ، إذ الخيِّر ، يَعشق الخيِّر ، بما يتوصل به إليه من نيليه وادراكه .

والخير الأول : مدرك لذاته بالفعل أبد الدهر فى الدهر ، فإن عشقه له أكمل عشق وأوفاه ، وإذن الصفات الإلهية لا تمايز بينها بالذات فى الذات .

فإذن .. العشق هو صريح الذات ، والوجود .. أعنى فى الخير المحض .

فإذن .. الموجودات : إما أن يكون وجودها بسبب عشق فيها .

وإما أن يكون وجودها هو العشق بعينه .

فتبين أن الهويات لا تخلو عن العشق ، وذلك ما أردنا أن نبين .

* * *

الفصل الثانى

(فى ذِكْر وجود العشق فى البسائط الغير الحية)

البسائط الغير الحية على أقسام ثلاثة :

إحداها : الحقيقة .

والثانى : الصورة التى لايمكن لها القوام بالانفراد بذاتها .

والثالث : الأعراض .

والفرق بين الأعراض وبين هذه الصورة : أن هذه الصورة مقدمة للجوهر ؛ ولذلك استحسن الأوائل من الإلهيين أن يجعلوها من أقسام الجواهر ، لكونها جزءاً للجواهر القائمة بذواتها ، ولم يحرموها من سِمَة الجوهرية لأجل امتناع وجودها منفردة الذات ، إذ الجوهر الهيولانى هذا حاله ، ومع ذلك لا ينكر اعتداده من جملة الجواهر ، لكونه فى ذاته جزءاً للجواهر القائمة بذواتها ؛ بل وأن يخصوها ـ أعنى الصورة ـ بمزية فى الجوهرية على الهيولى ، إذ هذه الصورة الجوهرية بها يقوم الجوهر بالفعل جوهراً .

ومهما وجد .. أوجب وجود جوهر بالفعل ، ولأجل ذلك قيل : إن الصورة جوهر بنوع فعل .

وأما الهيولى ، فهى معدودة مما يقبل الجوهرية بالقوة ، إذ لا يلزم بوجود كل هيولى جوهر ما وجوده بالفعل .

ولأجل ذلك قيل : إنه جوهر بنوع قوة .

فقد تقرر هذا القول حقيقة الصورة ، ولا يجمل إطلاق هذه الحقيقة على العرض . إذ ليس هو بمقوم للجوهر ، ولا معدود بوجه من الوجوه جوهراً .

فـإذا تقرر هـذا . فنقول : إن كل واحد من هذه الهويات البسيطة ، الغير الحية ، قرين عشق غريزى ، لا يخلو عنه ألبتة ، وهو سبب له فى وجوده .

فأمـا الهـيولى : فلديمومـة نزاعهـا إلى الصـورة مفـقودة ، وولوعـهـا بهـا موجـودة .

ولذلك تلقاها متى عريت عن صورة ، بادرت إلى الاستبدال عنها بصورة أخرى ، إشفاقاً من ملازمة العدم المطلق ، إذ من الحق أن كل واحد من الهويات نافراً بطبعه عن العدم المطلق .

والهيولى مقر للعدم ، فمهما كانت ذات صورة ، لم يقُم فيها سوى العدم الإضافى ، ولولاها .. لابسها العدم المطلق .

ولا حاجة بنا إلى الخوض فى إيضـــاح لمية ذلك ، فإن الهيولى كالمرأة اللائمة الذميمة المشفقة من استعلان قبحها ، فمهما انكشف قناعها . غطت ذمائمها بالكم .

فقد تقرر أن فى الهيولى عشقاً غريزياً ، فأما هذه الصورة فالعشق الغريزى فيها ظاهر بوجهين .

أحدهما : ما نجد فى ملازمتها موضوعها ، ومنافاتها لما يستحبها عنه .

والثـانى : ما نجد فى ملازمتها كمالاتها ، ومواضعها الطبيعية متى حصلت فيها ، وحركتها الشوقية إليها متى باينتها كصور الأجسام البسيطة الخمسة ، والمركبات من الأربعة ، ولا صورة ملازمة غير هذه الأقسام البتة .

وأما الأعراض : فعشقها ظاهر بالجد فى ملازمة الموضوع أيضاً ، وذلك عند ملابستها الأضداد فى الاستبدال بالموضوع .

فإذن ليس يعرى شىء من هذه البسائط عن عشق غريزى فى طباعه .

* * *

الفصل الثالث

(فى وجود العشق فى الصور النباتية ، أعنى النفوس النباتية)

فنختصر ههنا فنقول : كما أن النفوس النباتية تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : التغذية .

والثـانى : قوة التنمية .

والثالث : قوة التوليد .

كذلك العشق الخاص بالقوة النباتية على أقسام ثلاثة :

الأول: يختص بالقوى المغذية ، وهو مبدأ شوقه إلى حضور الغذاء عند حاجة المادة إليه ، وبقائه فى المغتذى بعد استحالته إلى طبيعته .

والثانى : يختص بالقوة المنمية ، وهو مبدأ شوقها إلى تحصيل زيادة المناسبة فى أقطار المغتذى .

والثالث : يختص بالقوة المولدة ، وهو مبدأ شوقها إلى تهيئة مبدأ كائن مثل الذى هو منه .

ومن المبين أن هذه القوى ، مهما وجدت ، لزمتها هذه الطبائع العشيقة ، فإذن هى فى طبائعها عاشقة أيضاً .

* * *

الفصل الرابع

(فى ذِكْر عشْق النفوس الحيوانية)

لاشك أن كل واحد من القوى والنفوس الحيوانية يختص بتصرف يحثّها عليه عشق غريزى ، وإلا لما كان وجودها فى البدن الحيوانى إلا معدودة فى جملة المعطلات . إن لم يكن لها نفور طبيعى مبدؤه بغضة غريزية ، وتوقان طبيعى ، مبدأه عشق غريزى ، وذلك ظاهر فى كل واحد من أقسامها .

أما فى الجزء الحاسّ منها خارجاً .. فللأُلْفة بعض المحسوسات دون بعض ، واستكراهه بعضاً دون بعض .

ولولا ذلك لتساوت العوارض الحسية عند الحيوانات ، ولما تصونت عن مباشرة المضرات بها ، ولتعطلت القوة الحسية فى حقيقتها .

وأما الجزء الحاسّ باطناً .. فلاطمئنانه إلى الراحة عن التخيلات المروحة ، وما ضاهاها إذا وجدت ، وتشوقه إليها إذا فقدت .

وأما فى الجزء الغضبى .. فلنزاعه إلى الانتقام ، والتغلب ، والفرار من الذل ، والاستكانة ، وما ضارع ذلك .

وأما فى الجزء الشهوانى .. فلنقدم أمامه مقدمة ينتفع بها بذاته ، وفيما ينى عليها القول فى الفصول ، وهو : أن العشق يتشعب قسمين :

أحدهما : عشق طبيعى ، وحامله لا ينتهى بذاته دون غرضه بحال من الأحوال ، مالم يصادمه دونه قاسر خارجى كالحجر ، فإنه لا يمكن أبداً أن يقصر

عن تحصيل غايته ، وهو الاتصال بموضوعه الطبيعى ، والسكون فيه من ذاته ، اللهم لا من جهة عارض قهرى ، وكالقوة المغذية ، وسائر القوى النباتية ، فإنها لاتزال مزاولة لجنب الغذاء ، وتلحمه بالبدن ، مالم يصدها عنه مانع غريب .

والثانى : عشق اختيارى ، وحامله قد يعرض بذاته عن معشوقه لتخيل استضرار بعارض أمامه يرجع قدْر ضرره على أوزان نفع المعشوق مثل الحمار .. فإنه إذا لاح له شخص الذئب متوجهاً نحوه ، أقصر عن قضم الشعير ، وأمعن فى الهرب ، لعرفانه أن ما يتصل به من ضرر العارض أرجح من منفعة المعرض عنه .

ثم قد يكون معشوق واحد لعاشقين ، أحدهما : طبيعى ، والثانى : اختيارى ، مثل الغرض بالتوليد إذا تدبر إضافته إلى القوة المولدة النباتية ، والقوة الشهوانية الحيوانية .

فإذا تحقق هذا فنقول : إن القوة الشهوانية من الحيوان أظهر الموجودات عند الجمهور باستطباع العشق .

ولا حاجة بنا إلى إظهار ذلك ، وليس معشوقًا فى عامة الحيوان غير الناطق ، إلا معشوق القوة النباتية بعينها .

إلا أن عشق القوة النباتية لاتصدر عنه الأفاعيل إلا بنوع طبيعى ، وبنوع أدنى ، وأدون .

وعشق القوة الحيوانية إنما تصدر عنه بالاختيار ، وبنوع أعلى وأفضل ، ويأخذ ألطف وأحسن . حتى أن بعض الحيوان قد يستعين فى ذلك بالقوة الحسية .

فلذلك ما توهم العامة أن ذلك العشق خاص بها ، وهو عند التحقيق خاص بالشهوانية ، وإن وجد للحسية فيها شركة التوسط .

وقـد توافق القوة البهيمية الشهوانية النبـاتية فى الغرض بأن يكون حصولـه لا بقصد اختيارى بائن ، وإن وجد فى صدور الفعل عنهما اختلاف فى الاختيار وسلبه ، مثل توليد المثل ، فإن الحيوان الغير الناطق ، وإن تحرك بعشقه الطبيعى المتغرز فيه من العناية الإلهية تحركًا اختياريًا ، يتأدى به إلى توليد المثل ، فلن تكون الغاية فيه مقصودة بذاتها ؛ لأن هذا الضرب من العشق غايته نفع نوعى .. أعنى بهذا أن العناية الإلهية لما اقتضت استبقاء الحرث والنسل ، وامتنع المراد فى مدة البقاء فى الشخص الكائن ، لضرورة تعقب الفساد فى موضع الكمال الكائن .. وحتى أوجبت الحكمة صرف العناية فى استبقائهما إلى الأنواع والأجناس ، فطبعت فى كل واحد من الأشخاص المعنى به فى الأنواع شوقًا إلى تأثير ملازمة توليد المثل ، وهيأت لذلك فيه آلات موافقة .

ثم إن الحيوان الغير الناطق لانحطاطه عن مرتبة الفوز بالقوة النطقية التى بها توقـف على حقيقة الكليات ، ولا يسـتفيد بادراك الغرض الخـاص بالأمور الكليـة .

فلذلك .. صـارت فيه القوة الشهوانية تشاكل القوة النباتية فى نزاعها إلى هـذا الغرض .

وتقرير هذا الفصل ، والفصل الذى تقدم نافع فى كثير مما سيأتى إثباته فى هذه الرسالة بعون الله وحسن تدبيره .

* * *

الفصل الخامس

(فى عشق الظُّرفاء والفتيان للأوجه الحسان)

يجب أن تُقدم أمام غرضنا فى هذا الفصل مقدمات أربع :

إحداها : أن كل واحد من القوى النفسانية ، مهما انضم إليها قوة أعلى منها فى الشرف ، اجتازت بانضمامها إليها ، وسريان البهاء فيها زيادة صقولة ، وزينة حتى تصير بذلك أفاعيلها البارزة عنها زائدة على ما يكون لها بانفرادها ، إما بالعدد ، وإما بحُسن الاتقان ، ولطف المأخذ ، والرجاء فى الانتهاء إلى الغرض ، إذ كل واحدة من عاليها لها قوة على تأييد السافل وتقويته ، وذَب للضرر عنه تأييداً وذباً [1] يوفيها من جهة قبولها زيادة بهاء وكمال .

وكذلك تصريفاتها إياها فى وجوه الاستعانات ، مما يفيدها الحسن والسناء ، كتأييد الشهوانية من الحيوان للنباتية ، وذب الغضبية عنها فى أمر نقص مادتها ، دون منتهاها الغريزى فى الذُّبول والإضرار لها ، وكتوفيق النطقية للحيوانية فى مقاصدها كإفادتها لها اللطافة والبهاء فى الاستعانة بها فى أغراضها .

ولهذا .. ما نوجد القوة الحسية والشوقية فى الإنسان ، قد يتعدى طورها فى أفعالها ، حتى أنها قد تتعاطى فى أفاعيلها مقاصد لن يقوم بالوفاء بها إلا صريح القوة النطقية .

ومثال ذلك فى القوة الوهمية ، فإن القوة النطقية قد تستصرخها فى بعض وجوه دَرْك مطلوبها بوجه استعانة ، فتستفيد من انعطاف النطقية عليها زيادة قوة

(١) الذب : المنع والدفع .. وبابه : رد .

وجسـور .. حتى أنهـا تتراءى بنيل المطلوب دونهـا ، وتتحلى بشيـمـهـا وعلامتهـا ، وتدعى دعواها ، وتتوهم فوزها بتصور المعقولات ما تسـكن إليه النفس ، ويطمئن إليه الذهن .. كعبد السوء يوغر إليه مولاه بإعانته فى سانحة له مهمة ، عظيمة الفائدة عند النبل . فيرى أنه ظفر بالمطلوب دون مولاه ، وأن مولاه قاصر عن ذلك ؛ بل هو المولى فى الحقيقة من غير أن يكون قد ظفر البتة بالمرام الذى تكلف مولاه تحصيله ، ولايشعر به .

وكذلك الحـال فى القوة الشـوقية من الإنس ، وهذا أحد علل الفساد .. إلا أنه ضرورى الوجود فى الوضع المطلوب فيه الخير .. وليس له من الحكمة ترك خير كثير لأجل عادية شر يسير ، بالإضافة إليه .

والثانية : أن الإنسان قد يصدر عن مفرد نفسه الحيوانية أفعال ، وتنفعل بمفردها انفعالات كالإحساس ، والتخيل ، والجماع ، والمواثبة ، والمحاربة .

إلا أن نفسه الحيوانية ، لِما اكتسبت من البهاء ، بمجاورة الناطقة ، تفعل هذه الأفاعيل بنوع أشرف وألطف .. فتتأثر فى المحسوسات ما كان على أحسن مزاج ، وأقوم تركيب ، ونسبة مما لا تتنبه الحيوانات الأضر له ، فضلاً عن أن يستأثرها .

وكذلك تتصرف بقـوة المتخيـلة فى أمور لطيفة بديعـة ، حتى يكاد يضاهى بذلك صريح العقـل ، ويتخير لموافقـة أهل الجمـال ، والكمـال ، والاعتدال ، والخيال فى الأفاعيل الغضبية حِيَلاً متنوعـة ، يسهل له بهـا إحـراز التغلب والظفر .

وقد يظهر أيضاً من ذاته آثار الأفاعيل بحسب اشتراك النطقية والحيوانية .. كتصريف قوته النطقية قوته الحسية ، لتنزع من الجزئيات بطريقة الاستقراء أموراً

كلية ، وكاستعانته بالقوة المتخيلة فى تفكيره ، حتى يتوصل بذلك إلى ادراك غرضه فى الأمور العقلية .

وكتكليفه القوة الشهوانية المباضعة من غير قصد ذاتى إلى مفرد اللذة .. بل للتشبه بالعلة الأولى فى استبقاء الأنواع ، وخصوصاً أفضلها .. أعنى : النوع الإنسانى .

وكتكليفه إياها المطعم والمشرب ، لا بكيفما اتفق ؛ بل على الوجه الأصوب من غير قصد ، إلى مجرد اللذة .

لكن لإعانة الطبيعة المسخرة على استبقاء شخص أفضل الأنواع .. أعنى : الشخص الإنسانى .

وكتكليفه القوة الغضبية : منازعة الأبطال ، واعتناق القتال لأجل الذّب عن مدينة فاضلة ، أو أمة صالحة .

وقد تصدر منه أفاعيل عن صميم قوته النطقية مثل : تصور المعقولات ، والنزاع إلى المهمات ، وحُب الدار الآخرة ، وجوار الرحمن .

والثالثة : فى كل واحد من الأوضاع الإلهية خيرية ، وكل واحدة من الخيرات مأثورة ؛ لكن فى الأمور الخيرية الدنيوية مارّ بما يضر إيثاره بما يعلوه فى المرتبة .

ومثاله فى الأمور المتعارفة : أن الاستلذاذ بالتوسعة فى الإنفاق ، وإن كان مأثوراً ، فإنه يجتنب الأضرار بمأثور فوقه ، وهو خصب ذات اليد ، ووفور المال .

وكذلك الأمور الخاصة بالنفس الحيوانية إذا اعتبرت فى الحيوان الغير الناطق بنوع الإفراط ، وإن لم يُعَدّ من جُملة الشر ؛ بل عُدّ ذلك فضيلة فى قواها ، فلأضراره بالقوة النطقية ، معدودة من جملة المثالب فى الإنسان ، ويستحق الاجتناب والهجران .

والرابعة : أن النفس النطقية والحيوانية أيضاً لجوارها للنطقية أبداً .. تعشقان كل شيء : حُسن النَّظْم ، والتأليف ، والاعتال ، مثل : المسموعات الموزونة وزنًا متناسبًا ، والمذوقات المركَّبة من أطعمة مختلفة ، بحسب التناسب وما شابه ذلك .

أما النفس الحيوانية ، فبنوع توليد طبيعى .

وأما النفس الناطقة ، فإنها إذا سعدت بتصور المعانى العالية على الطبيعة ، وعرفت أن كلما قرب من المعشوق الأول : فهو أقدم نظاماً ، وأحسن اعتدالاً ، وبالعكس أن ما يليه : أفوز بالوحدة وتوابعها ، كالاعتدال ، والإنفاق ، وما يبعد عنه : أقرب الى الكثرة ، وتوابعها ، كالتفاوت ، والاختلاف على ما أوضحه الإلهيون .

فمهما ظفرت بشيء حسن التركيب ، لاحظته بعين المقه فإذا تقرر هذه المقدمات فنقول :

ـ إن من شأن العاقل الولوع بالمنظر الحسن من الناس ، وقد يُعد ذلك منه فى بعض الأحايين تظرفًا وفتوة ، وهذا الشأن إما أن يختص بالقوة الحيوانية ، وإما أن يختص بحسب الشركة ؛ لكنه لو كان مختصاً بالقوة الحيوانية ، لَمَا عَدَّه العقلاء تظرفًا وفتوة .. إذ من الحق أن الشهوات الحيوانية إذا تناولها الإنسان تناولاً

حيوانياً ، فهو متعرض للنقيصة ، ومضر بالنفس النطقية ، ولا هو مما يختص بالنفس النطقية .. إذ مقتضيات شغلها هى الكليات العقلية الأبدية ، لا الجزئيات الحسية الفاسدة .. فإذن ذلك بحسب الشركة .

وبيان ذلك بوجه آخر : أن الإنسان إذا أحب الصورة المستحسنة لأجل لذة حيوانية ، فهو مستحق اللوم .. بل الملامات ، والإثم مثل الفرقة الزانية المتلوطة ، وبالجملة : الأمة الفاسقة .

ومهما أحب الصورة المليحة ، باعتبار عقلى على ما أوضحناه عُدَّ ذلك وسيلة إلى الرفعة ، وزيادة فى الخيرية لولوعه بما هو أقرب - فى التأثير - من المؤثر الأول ، والمعشوق المحض ، وأشبه بالأمور العالية الشريفة ، وذلك مما يؤهله لأن يكون ظريفاً ، وفتى لطيفاً .

ولذلك لايكاد أهل الفطنة من الظرفاء والحكماء ، ممن لا يسلك سبيل المتعسفين والأقحاح ، يوجد خالياً عن شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية .

وذلك أن الإنسان مع ما فيه من زيادة فضيلة الإنسانية ، إذ وجد فائزاً بفضيلة اعتدال الصورة ، التى هى مستفادة من تقويم الطبيعة واعتدالها ، وظهور أثر إلهى فيها جداً ، استحق لأن ينتحل من ثمرة الفؤاد : مخزونها ، ومن أصفى صفاء الوداد : أطيبه ، ومكنونه .

ولذلك قال « النبى » ﷺ : (**اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه**) [1] .

نصاً ، منه : أن حُسن الصورة لا يوجد إلا عند جودة التركيب الطبيعى ، وأن جودة الاعتدال فى التركيب مما يفيد طيباً فى الشمائل ، وعذوبة فى السجايا .

---

(١) رواه البخارى فى التاريخ ، وابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج ، وأبى يعلى فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ؛ ولكن بلفظ « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » .

وقد يوجد أيضاً .. واحد من الناس قبيح الصورة ، حَسن الشمائل ، وذلك لايخلو من عذرين :

إما أن يكون قبيح الصورة ، لم يحصل بحصول قُبح الاعتدال فى أول التركيب ، داخلاً .. بل بفساد عارضاً خارجاً .

وإما أن يكون حسن الشمائل ، لا بحسب الطباع بل بحسب الاعتياد .

وكذلك قد يوجد حسن الصورة ، قبيح الشمائل ، وذلك أيضاً لا يخلو من عذرين :

إما أن يكون قبيح الشمائل ، عارضاً بعوارض فى الطباع بعد استحكام التركيب .

ويكون ذلك لاعتياد قوى .

وعشق الصورة الحَسَنَة من الإنسان قد تتبعه أمور ثلاثة :

أحدها : حُب معانقتها .

والثانى : حُب تقْبيلها .

والثالث : مباضعتها .

فأما حُب المباضعة : فمما يتعين عنده أن هذا العشق ليس إلا خاصاً بالنفس الحيوانية ، وأن حصتها فيه زائدة ، وأنها على مقام الشريك ؛ بل المستخدم .. لا على مقام الآلة : وذلك قبيح جداً .

بل لن يخلص العشق النطقى ، مالم تنقمح القوة الحيوانية غاية الانقماع .

ولذلك بالحرى أن يتهم العاشق ، إذا راود معشوقه ، بهذه الحاجة .. اللهم إلا أن تكون هذه الحاجة منه بضرب نطقى . أعنى : إن قصد به توليد المثل ، وذلك فى الذكر ، مُحال ، وفى الأُنثى المحرمة فى الشرع : قبيح .

بل لا ينساغ القصد ، ولا يستحسن إلا لرجل فى امرأته ، أو فى مملوكته .

وأما المعانقة والتقبيل ، فإذا كان الغرض فيهما هو التقارب والاتحاد ، وذلك لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها اللمسى ، ونيلها له بحسها البصرى ، فتشتاق إلى معانقته ، وتنزع إلى أن يختلط نسيم مبدأ فاعلية نفسانية ، وهو القلب ، بنسيم مثله من المعشوق .. فتشتاق إلى تقبيله ، فليسا بمنكرين فى ذاتهما .

لكن استتباعهما بالعرض أموراً شهوانية فاحشة : توجب التوقى عنهما . إلا إذا تيقن من متوليهما خمود الشهوة ، والبراءة عن البهيمية .

ولذلك لم يستنكر تقبيل الأولاد ، وإن كان مبدأه مزعجاً لتلك . إذ كان الغرض فيه التدانى والاتحاد ، لا الهمّ بالفُحش أو الفساد .

فمن عَشِقَ هذا الضرب من العشق فهو فتى ظريف ، وهذا العشق تظرف ومزية .

* * *

الفصل السادس

(فى ذكر عشق النفوس الإلهية)

كل واحد من الأشياء الحقيقية الوجود إذا أُدرك ، أو نال خيراً من الخيرات .. فإنه يعشقه بطباعه : عشق النفوس الحيوانية للصور الجميلة .

وأيضاً .. كل واحد من الأشياء الحقيقية الوجود ، إذا ادرك ادراكاً حسياً ، أو عقلياً ، واهتدى اهتداءاً طبيعياً إلى شيء ، مما يفيده منفعة فى وجوده .. فإنه يعشقه فى طباعه ، لا سيما إذا كان الشيء مفيداً له ، خاص الوجود ، مثل : عشق الحيوان للغذاء ، والوالدين للولد .

وأيضاً .. كل شيء إذا تحقق أن شيئاً من الموجودات يفيده التشبه به ، والتقرب والاختصاص به زيادة فضيلة ومرتبة ، فإنه يعشقه بطباعه : عشق العامل لوليه .

ثم النفوس الإلهية ، من البشرية والملكية ، لا يستحق إطلاق التأله عليها ، مالم تكن فائزة بمعرفة الخير المطلق .

إذ من البين : أن هذه النفوس لن توصف بالكمال . إلا بعد الإحاطة .

ولا طريق إلى تصور المعقولات المعلولة .. مالم يتقدم عليها معرفة العلل الحقيقية ، وخاصة العلة الأولى .

كما لا سبيل إلى وجود المعقولات ، مالم يتقدم عليها وجود ذوات العلل ، خاصة العلة الأولى .

والعلة الأولى : هى الخير المحض المطلق بذاته ، وذلك لأنه كما كان يطلق عليه الوجـود الحقيقى ، وكل واحـد مما لـه وجـود ، فإن حقيقته لا تعرى عن خيريـة .

ثم الخيرية : إما أن تكون مطلقة ذاتية ، أو مستفادة .

فالعلة الأولى : خير ، وخيريتها إما أن تكون ذاتية مطلقة ، أو مستفادة ؛ لكنها إن كانت مستفادة لم تخْلُ من قسمين :

إما أن يكون وجودهـا ضرورياً فى قوامه ، فيكون مفيدها علة لقوام العلة الأولى ، والعلة الأولى علة لها خلف .

وإما أن يكون غير ضرورى فى قوامه وهذا محال أيضاً على ما نوضحـه آنفاً .

لكننا إن أعرضنا عن إبطال هذا القسم ، فإن المطلوب قائم ، وذلك لأنا إذا رفعنا هذه الخيرية عن ذاته ، فمن الواضح أن ذاته تبقى موجـودة ، وموصوفة بالخيرية ، وتلك الخيرية إما أن تكون واجبة ذاتية ، أو مستفادة .

فإن كانت مستفادة ، فقد تمادى الأمر إلى ما لا نهاية ، وذلك محال .

وإن كانت ذاتية فهو المطلوب .

وأقول أيضاً : إن من المحال أن تستفيد العلة الأولى خيرية غير ذاتية فيهـا ، ولا ضرورية فى قوامها .

وذلك لأن العلة الأولى يجب أن تكون فائزة فى ذاتها بكمال الخيرية ، من أجل أن العلة الأولى .. إن لم يكن فى ذاته ، مستوفياً لجميع الخيرات التى هى بالإضافة إليه حقيقية باطلاق سمة الخيرية عليها ، ولها إمكان وجود ، فهو

مستفيدها من غيره ، ولا غير له إلا معلولاتهـا ، فـإذن مفيده : معلولـه ، ومعلولُـه : لا خير له فيه ، ومنه مستفاداً عنه .

فإذن معلوله إن أفاده خيرية : فإنما يفيده خيرية مستفادة عنه ؛ لكن الخيرية المستفادة من العلة الأولى إنما هى من المستفيد .

فإذن هذه الخيرية ليست فى العلة الأولى ؛ بل فى المستفيد ، وقد قيل إنها فى الأولى ، وذلك خلف .

والعلة الأولى : لا نقص فيها بوجه من الوجوه .. وذلك لأن الكمال الذى بإزاء ذلك النقص : إما أن يكون وجوده غير ممكن ، فلا يكون إذن بإزائه نقص ، إذ النقص هو عدم الكمال الممكن الوجود ، وإما أن يكون وجوده ممكناً .

ثم الشىء الذى ليس فى شىء ما إذا تصور إمكانه تصور معه علة تحصيله فى الشىء الذى هو ممكن فيه .

وقد قُلنا إنه لا علة للعلة الأولى فى كماله ، ولا بوجه من الوجوه ، فإذن هذا الكمال الممكن ليس بممكن فيه ، وإذن ليس بإزائه نقص .

فإن العلة الأولى مستوفية لجميع ما هو خيرات ، بالإضافة إليها ، وإن الخيرات العالية التى هى خيرات من جميع الوجوه ، لا بالإضافة إليها : خيرات مستوفاة لها .

فقـد اتضح أن العـلة مستوفية لجميع الخيرية التى هى بالإضافـة إليهـا خيريـة ، وليس لها إمكان وجود .

فقـد اتضح أن العلة الأولى خيرية خيـر فى ذاتهـا ، وبالإضـافة إلى سـائر الموجودات أيضاً ، إذ هى السبب الأول لقوامها ، وثباتها ، وبقائها على أخص وجوداتها ، واشتياقها إلى كمالاتها .

فإذن العلة الأولى خير مطلق من جميع الوجوه .

وقد كان اتضح أن من ادرك خيراً ، فإنه بطابعه يعشقه ، فقد اتضح أن العلة الأولى معشوقة للنفوس المتألهة .

وأيضاً .. فإن النفوس البشرية والملكية .. لما كانت كمالاتها بأن تتصور المعقولات على ما هى عليه ، بحسب طاقتها تشبهاً بذات الخير المطلق ، وأن تصدر عنها أفاعيل هى عندها ، وبالإضافة إليها عادلة ، كالفضائل البشرية ، كتحريك النفوس الملكية للجواهر العلوية ، توخياً لاستبقاء الكون والفساد ، تشبيهاً بذات الخير المطلق .

وإنما تأتى هذه التشبيهات لتحوز بها القرب من الخير المطلق ، ولتستفيد بالتقرب منه الفضيلة والكمال ، وإن ذلك بتوفيقه وهى متصورة لذلك منه .

وقد قلنا : إن مثل هذا عاشق للمتقرب منه ، فواجب على ما أوضحناه سالفاً .. أن يكون الخير المطلق معشوقاً لها ، أعنى لجملة النفوس المتألهة .

وأيضاً .. فإن الخير المطلق لاشك أنه سبب لوجود ذوات هذه الجواهر الشريفة ، ولكمالاتها فيها ، إذ كمالها إنما هو بأن تكون صوراً عقلية قائمة بذواتها ، وأنها لن تكون كذلك إلا بمعرفته ، وهى متصورة لهذه المعانى منه .

وقد قلنا : إن مثل هذا عاشق لمثل هذا السبب ، فبيّن على ما أوضحناه سابقاً : أن الخير المطلق معشوق لها ، أعنى لجملة النفوس المتألهة .

وهذا العشق فيها غير زائل البتة ، وذلك لأنها لاتخلو من حالتى الكمال والاستعداد .

وقد أوضحنا ضرورة وجود هذا العشق فيها حالة كمالها ، وأما حالة استعدادها ، فلن توجد إلا فى النفوس البشرية دون الملكية ، لفوز الملكية بالكمال ما وجدت .

وقد وجدت ، وهى ـ أعنى النفوس البشرية ـ بحالة الاستعداد لها شوق غريزى إلى معرفة المعقولات التى هى كمالها ، وخاصة ما هو أفيد للكمال عند تصوره ، وأهدى إلى تصور ما سواه .

وهذه صفة المعقول الأول الذى هو علة لكون كل معقول سواه معقولاً فى النفوس ، وموجوداً فى الأعيان .

ولا محالة أن لها عشقاً غريزياً فى ذاتها للحق المطلق أولاً .. ولسائر المعقولات ثانياً ، وإلا فوجودها على استعدادها الخاص بكمالها معطل .

فإذن المعشوق الحق للنفوس البشرية والملكية : هو الخير المحض .

* * *

الفصل السابع

(فى خاتمة الفصول)

نريد أن نوضح فى هذا الفصل أن كل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقًا غريزيًا .. وأن الخير المطلق يتجلى لعاشقه ، إلا أن قبولها لتجليه ، واتصالها به على التفاوت ، وأن غاية القُربى منه هو : قبول لتجليه على الحقيقة ، أعنى على أكمل ما فى الإمكان ، وهو المعنى الذى يسميه الصوفية بالاتحاد ، وأنه لجوده عاشق أن ينال تجليه ، وإن وجود الأشياء بتجليه .

فنقول : لما كان فى كل واحد من الموجودات عشق غريزى لكماله ، وإنما ذلك لأن كماله معنى ، به تحصل له خيريته .

فبين أن المعنى الذى به تحصل للشىء خيريته ، حيث ما توجد ، وكيف ما توجد أوجب أن يكون ذلك الشىء معشوقًا لمستفيد الخيرية ، ثم لا يوجد شىء أكمل وأوفى بذلك من العلة الأولى فى جميع الأشياء .

فهو إذن معشوق لجميع الأشياء ، وكون أكثر الأشياء غير عارف به ، لا ينفى وجود عشقه الغريزى فى هذه الأشياء لكمالاتها .

والخير الأول بذاته : ظاهر ، متجلٍّ لجميع الموجودات ، ولو كان ذاته محتجبًا عن الموجودات بذاته ، غير متجل لها لِمَا عُرف ، ولا نيل منه بتة ، ولو كان ذلك فى ذاته بتأثير الغير ، لوجب أن يكون فى ذاته المتعالية عن قبول الغير تأثير للغير وذلك خلف ؛ بل ذاته بذاته متجل ، ولأجل قصور بعض الذوات عن قبول تجليه يحتجب .

فبالحقيقة لا حجاب إلا فى المحجوبين ، والحجاب هو القصور ، والضعف ، والنقص ، وليس تجليه إلا حقيقة ذاته إذ لا يتجلى بذاته فى ذاته ، إلا هو صريح ذاته ـ كما أوضحه الإلهيون ـ فذاته الكريم متجل ؛ ولذلك ربما سماه الفلاسفة صورة العقل ، فأول قابل لتجليه هو الملك الإلهى الموسوم بالعقل الكلى ، فإن جوهره ينال تجليه نحو الصورة الواقعة فى المرآة لتجلى الشخص الذى هو مثاله .

ويقرب من هذا المعنى ما قيل : إن العقل الفعال مثاله ، فاحترز أن تقول مثله ، وذلك هو الواجب الحق ، فإن كل منفعل عن سبب قريب ، فإنما ينفعل بتوسط مثال يقع منه فيه ، وذلك بيِّن بالاستقراء .

فإن الحرارة النارية إنما تفعل فى جُرم من الأجرام .. بأن تضع فيه مثالها السخونة ، وكذلك سائر القوى من الكيفيات .

فالنفس الناطقة : إنما تفعل فى نفس ناطقة مثلها ، بأن تضع فيها مثالها ، وهى الصورة المعقولة .

والسيف : إنما يقطع بأن يضع فى المنفعل عنه مثاله وهو شكله .

والمسَنّ : إنما يحدد السكين بأن يضع فى جوانب حده مثال ماسّه ، وهو استواء الأجزاء وملاستها .

ولقائل أن يقول : إن الشمس تسخّن وتسوّد من غير أن تكون السخونة والسواد مثالها .

لكنّا نُجيب عن ذلك بأن نقول : إنا لم نَقُل أن كل أثر حصل فى متأثر من مؤثر ، أن ذلك الأثر موجود فى المؤثر ، فإنه مثال من المؤثر فى المتأثر .

لكنّا نقول : إن تأثير المؤثر القريب إلى المتأثر .. يكون بتوسط مثال ما يقع منه فيه ، وكذلك الحال فى الشمس ، فإنها تفعل فى منفعلها القريب بوضع مثالها فيه وهو الضوء .. ويحدث من حصول الضوء فيها السخونة ، فيسخن المنفعل عنها منفعلاً آخر عنــه بأن يضع فيه مثاله أيضــاً وهو سخونته ، فيسخن بحصول السخونة ، ويسود . .

هذا من جهــة الاسـتقـراء ، وأمـا من جهـة البرهان الكلى : فليس هذا موضوعـه .

ونرجع فنقول : إن العقل الفعــال يقبل التجلى بغير توسط ، وهو بإدراكه لذاتـه ، ولسائر المعقولات عن ذاته بالفعل والثبات .

وذلك أن الأشـياء التى تتصـــور المعقـولات بلا رؤيــة ، واسـتعانـة بحـس أو بتخيل ، إنما تعقل الأمـور المتأخـرة بالمقدمات ، والمعلولات بالعلل ، والرذيلة بالشريفــة .

ثم تناله النفوس الإلهية بلا توسط أيضاً عند النيل ، وإن كان يتوسط أعانه العقل الفعال عند الإخراج من القوة إلى الفعل ، وأعطاه القوة على التصور وإمساك المتصور والطمأنينة إليه .

ثم تناله القوة الحيوانية ، ثم النباتية ، ثم الطبيعية .

وكل واحد مما تناله .. فيشوقها ما نالته منه إلى التشبه به بطاقتها . فإن الأجرام الطبيعية ، إنما تتحرك حركاتها الطبيعية تشبهاً به فى غايتها ، وهو البقاء على أخص الأحوال ، أعنى عند حصولها فى المواضع الطبيعية ، وإن لم تتشبه فى مبادئ هذه الغاية ، وهى الحركة .

وكذلك الجواهر الحيوانية والنباتية ، إنما تفعل أفاعيلها الخاصة بها ، تشبهاً به فى غاياتها ، وهى : إبقاء نوع ، أو شخص ، أو إظهار قوة ومقدرة ، وماضاهاها .. وإن لم تتشبه به فى مبدأ هذه الغايات .. كالجماع ، والتغذى .

وكذلك النفوس البشرية .. إنما تفعل أفاعيلها العقلية ، والعمالية والخيرية فى غايتها ، وهى كونها عادلة ، عاقلة ، وإن لم يكن تشبه به أيضاً فى مبادئ هذه الغايات .. كالتعلم وما شاكله .

والنفوس الإلهية الملكية .. إنما تحرك تحريكاتها ، وتفعل أفاعيلها تشبهاً به أيضاً فى إبقاء الكون ، والفساد ، والحرث ، والنسل .

والعلة فى كون القوى الحيوانية ، والنباتية ، والطبيعية ، والبشرية متشبهة به فى غايات أفاعيلها دون مباديها ؛ لأن مباديها إنما هى أحوال استعدادية ، قوية ، والخير المطلق منزه عن مخالطة الأحوال الاستعدادية القوية ، وغاياتها : كمالات فعلية .

والعلة الأولى : هى الموصوف بالكمال الفعلى المطلق ، فجاز أن تتشبه فى الكمالات الغائية ، وامتنع أن تتشبه بها فى الاستعدادات المبدئية .

وأما النفوس الملكية : فإنها فائزة فى صور ذاتها بالتشبه به فوزاً أبدياً ، عرياً عن القوة ، إذ هى عاقلة له أبداً ، وعاشقة له لما تعقله منه أبداً ، ومتشبهة به لما تعشقه منه أبداً ، وولوعها بإدراكه ، وتصوره اللذين هما أفضل إدراك ، وتصور يكاد يشغلها عن إدراك دونه ، وتصور ما سواه من المعقولات ، إلا أن معرفته بالحقيقة تعود بمعرفة سائر الموجودات وكأنها تتصوره قصداً وولوعاً ، وتتصور ما سواه تبعاً .

وإذا كان لولا تجلى الخير المطلق ، لَمَا نيل منه ، ولو لم ينل منه لم يكن موجود ، فلولا تجليه ، لم يكن وجود ، فتجليه علة كل وجود ، وإذ هو بوجوده عاشق لوجود معلولاته ، فهو عاشق لنيل تجليه ، وإذ عشقه الأفضل : فنيله لفضله هو الأفضل .

فإذاً معشـوقه الحقيقى : فى أن ينال تجليه ، وهو حقيقة نيـــل النفوس المتألهة له ؛ ولذلك قد يجوز أنها معشوقات ، وإليه يرجع ما روى فى الأخبار :

ـ (إن الله تعالى يقول :

ـ « **إن العبد إذا كان كذا ، وكذا : عشقنى وعشقته** » .

وإذا الحكمة لا تجوز إهمال ما هو فاضل فى وجوده بوجه ما ، وإن لم يكن فى غاية الفضل .

فإذن الخير المطلق قد يُعشق لحكمته أن تنال منه نيلاً ، وإن لم تبلغ كمال الدرجة فيه .

فإذن الملك الأعظم رضاه أن يشبَّه به ، والملوك الفانية سخطها على من يشبه بها ؛ لأن ما يرام من التشبـه من الملك الأعظم ، لا يؤتى على غايتـه ، وما يرام من التشبه من الملوك الفانية قد يؤتى على مبلغه .

وإذ قد بلغنا هذا المبلغ فلنختم الرسالة حامدين الله رب العالمين .

تمت بعون الله تعالى

* * *

(شرح رسالة العشق) (*)

عرض « ابن سينا » للعشق فى مواطن متفرقة من مؤلفاته المتعددة ، فحلله إلى عناصره النفسية ، وأبان عن خصائصه الميتافيزيقية ، وذلك فى ثنايا ما كان يتناوله من المشاكل الفلسفية التى يدور عليها مذهبه من الناحيتين النظرية والعملية .

وبمقدار ما بين هذه المشاكل ، وبين العشق من صلات تختلف قوة وضعفا ، وتتفاوت قُرباً وبعداً .

على أنه إن كان قد عرض للعشق على وجه متفرق فى أكثر مؤلفاته ، فهو قد عنى به عناية خاصة فائقة ، إذ أفرد له رسالة فصل ، وأوضح فيها ما ذكره مجملاً ومشكلاً فى مؤلفاته الأخرى .

وأعنى بهذه الرسالة : « رسالة العشق » التى تحدث فيها عن حقيقة العشق ، وصلته بالوجود ، وسريانه فى الموجودات سواء ما كان منها موجودات حية أم غير حية ، جواهر أم أعراضاً ، عقولاً أم نفوساً ، أجساماً طبيعية أم أجراماً فلكية ، فأظهرنا من خلال هذا كله على خصائص العشق الميتافيزيقية ، والطبيعية ، والنفسية ، والأخلاقية .

واصطنع فيما يعرض له من هذا كله وما ينتهى إليه فيه من نتائج ، أسلوب البحث الدقيق ، والفكر العميق ، والحجة القوية .

(*) للدكتور « محمد مصطفى حلمى » ـ أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب ـ عام ١٩٥٢ م .

كما أنه يؤلف من هذا كله نظرية طريفة فى العشق ، قد اتسقت أجزاؤها ، واتضحت معالمها .

و « رسالة العشق » تشتمل على فصول سبعة ، ذكر فى أولها : سريان قوة العشق فى كل واحد من الموجودات .

وفى ثانيها : وجود العشق فى الجواهر البسيطة غير الحية .

وفى ثالثها : وجود العشق فى النفوس النباتية .

وفى رابعها : وجود العشق فى النفوس الحيوانية .

وفى خامسها : عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان .

وفى سادسها : عشق النفوس الإلهية .

وجعل سابعها : بمثابة الخاتمة والتعقيب على الفصول الستة المتقدمة ، وقد أودعه أهم وأروع النتائج الفلسفية التى انتهى إليها من دراسته التفصيلية للعشق .

وليس من شك فى أن هذه الفصول السبعة إذا اجتمع بعضها إلى بعض ، وفهم بعضها فى ضوء ما يعرضه الفيلسوف متفرقًا فى بعضها الآخر ، كانت كافية لأن تخرج لابن سينا نظرية فى العشق لها طرافتها وقيمتها من النواحى الميتافيزيقية ، والطبيعية ، والنفسية ، والأخلاقية ، والتصوفية .

ولكى يتبين لنا مالنظرية « ابن سينا » فى العشق من قيمة وما فيها من طرافة ، يحسن أن نقف مع الشيخ « الرئيس » على صلة العشق بالوجود من ناحية ، وعلى سريان العشق فى كل الموجودات من ناحية أخرى ، فهاتان لعمرى

هما الناحيتان الرئيسيتان ، أو الأساسان الجوهريـان اللذان يقوم عليهما بنـاء نظريته فى العشق .

فإذا وقفنا مع « ابن سينا » عند الصلة بين العشق والوجود ، ألفينا فيلسوفنا يقرر أن وجود الموجودات : إما أن يكون بسبب عشق فيها ، وإما أن يكون وجودها والعشق هو هو بعينه .

وهذا يعنى بعبارة أخرى أن الموجودات لا تخلو عن العشق : فكل موجود إنما ينزع بطبعه إلى الكمال الذى هو خير ، وينفر عن النقص الذى هو شر .

وإذا كان الخير من مستلزمات الوجود ، والشر من متعلقات العدم ، فقد ترتب على ذلك أن لكل موجود شوقاً طبيعياً ، وعشقاً غريزياً ، ولزم ضرورة أن يكون العشق سبباً لوجود هذا أو ذاك .

ويتبين هذا فى وضوح وجلاء إذا عرفنا أن العدم المطلق إنما هو فى الحقيقة الانتهاء إلى أقصى نهايات النقص .

وإذا كانت الموجودات الحقيقية : إما موجودات مستعدة لنهاية الكمال ، أو موجودات موصوفة بالتردد بين نقص عارض وكمال موجود بالطبع ، لم تَخْلُ جملة الموجودات عن ملابسة كمال ما ، وكانت ملابستها لهذا الكمال آتية من عشقها الطبيعى ، ونزوعها الغريزى إلى الذات الإلهية التى تفيض من كمالاتها وخيراتها على الموجـودات التى أودع الله فيها العشق ، تستحفظ به ما نالت من فيش الكمالات الكلية من ناحية ، وتنزع به إلى إيجاد هذه الكمالات عند فقدانها من ناحية أخرى .

ولكى تظل الموجودات متلقية لفيض الكمال الإلهى ، الذى هو فى الحقيقة عون لها على الاستمرار فى الوجود ، لابد من أن يكون العشق فى جميع الموجودات على وجه لا يفارقها فيه مطلقاً ، ولا ينفك عنها أبداً .

على أن « ابن سينا » يصور علاقة العشق بالوجود فى صورة أخرى ، لعلها أوضح وأبلغ فى الدلالة على ما يرمى إلى إثباته من أن وجود الكائنات إنما يرجع إلى عشقهـا الغريزى ، ونزوعها الطبيعى : فهو يتحـدث عن الخير .. فيرى أنه بذاتــه معشوق .

ويستدل على ذلك بأن كل من يشتهى ، أو يتوخى ، أو يعمل إنما يتخذ لنفسه غرضاً يتصور خيريته .

وبأن الهمم تقتصر على إيثار الخير فى كل التصرفات .

وكما أن الخير لذاته معشوق ، فكذلك الخير يعشق الخير ، إذ ليس العشق فى الحقيقة إلا استحسان الحسن الملائم ، وليس ثَمَّة أحسن ، ولا أكثر ملاءمة من الخير .

وهذا الخير قد يباين ، فإن كان كذلك ، كان العشق مبدأ النزوع إليه عند غيبته ، ومبدأ الاستزادة منه ، والاتحاد به عند حضوره .

وهكذا .. يكون الخير معشوقاً بماهو خير ، ويكون العشق لمـا قد نيل من الخير ، أو لما سينال منه ، وعلى قدر الخيرية تكون المعشوقية .

فكلمـا زاد حظ الشيء من الخيـرية ، زاد الإقبـال عليه ، والنزوع إليه ، والعشق لــه .

فإذا انتقلنا مع « ابن سينا » من هذا الحديث العام عن عشق الخير ، وما يدفع إليه ، ويترتب عليه ، إلى حديث خاص موضوعه هو : الموجـود الأسمى الذى يعلو عن الخضوع لتصرف متصرف ، أو تدبير مدبر ، وذلك لعظم شأنه ، رأينا

« ابن سينا » ينتهى إلى أن الموجود المقدس عن الوقوع تحت التدبير هو الغاية فى المعشوقية ؛ لأنه هو الغاية فى الخيرية .

ومعنى هذا بعبارة أخرى : أن الذات الإلهية المقدسة عاشقة ، أو هى بعبارة أوضح عاشقة لذاتها ، ومعشوقة من ذاتها .

وإذا كان الخير يعشق الخير ، وكانت الذات الإلهية هى الخير الأول ، والخير المطلق ، والخير المحض ، وكان الخير الأول مدركاً لذاته بالفعل أبد الدهر فى الدهر ، فقد انبنى على ذلك : أن عشقه لذاته هو أكمل عشق .

وما يقال عن الذات الإلهية باعتبارها خيراً مطلقاً محضاً ، يقال عنها باعتبارها جمالاً أسمى ، وبهاء أنقى : فإذا كان كل جمال ككل خير : معشوقاً ، وكانت الذات الإلهية فى غاية الجمال والكمال والبهاء ، كما هى فى غاية الخيرية ، وكانت تعقل ذاتها بهذه الغاية فى الخير ، وبتلك الغاية فى الجمال ، وتتعقل العاقل والمعقول على أنهما واحد بالحقيقة ، فالنتيجة لهذا كله .. أن ذات الله هى أعظم عاشق ، وأعظم معشوق .

ولا يقف « ابن سينا » عند هذا الحد من بيان الصِّلة بين العشق والوجود ، وإثبات أن الموجودات إن هى إلا ثمرة من ثمرات عشقها للخير الأسمى ، وشوقها إليه ، واستعدادها من جماله الأبهى ، وإنما هو يتجاوزه إلى إثبات ذلك بطريق آخر :

فهو يرى : أن الخير المطلق ليس معشوقاً من الموجودات فحسب ، وأن عشقها له ليس وحده سبباً فيما تستمتع به من وجود ، وإنما هو يرى أيضاً أن الخير المطلق يتجلى لعاشقه الذى يقبل تجليه له ، فيُقْبِل عليه ، ويتصل به .

على أن قبـول هذا التجلى وحصـول هـذا الاتصـال ينفاوتان بتفاوت الموجـودات .

ولعل اتحاد العاشق والمعشوق عند الصوفية : هو أقوى ما يظهر فيه قبول تجلى الخير المطلق المعشوق .

وأقصى ما يطمح إليه العاشق من عشقه للخـير المطلق ، وقُربه منه ، واتصاله به ، ذلك بأن الصوفية إنما يقبلون تجلى الخير المطلق على الحقيقة ، أى على أكمل ما فى إمكانهم .

ومن هُنا يقال فى لغة الصوفية : إن الله تجلّى لهم ، أو تجلّى عليهم .. فى حين أنه احتجب عمن سواهم .

والحقيقـة أن ذات الخـير المطلق لا تحتجب أبداً ، وإنما هى متجلية دائمًا ، ومتجلية بذاتها ، غير أن بعض الذوات قد قصر عن قبول تجليها ، فقيل : إن الذات الإلهية قد احتجبت عن تلك الذوات .

وليس الحجاب فى ذات الله ، وإنما هو ذوات المحجوبين عن إدراكه ، القاصرين عن قبول تجلياته .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الخير المطلق عاشقاً لوجود معلولاته ، وكان متجلياً بذاته لذوات معلولاته ، وكان جواداً يفيض من معينه الفياض على معلولاته ، فقد ترتب على هذا كله أن يكون الخير المطلق عاشقًا لأن ينال تجليه ، وأن يكون وجود الأشياء بتجليه الذى ليس إلا حقيقة ذاته .

وبعبارة أخرى يمكن أن يقال مع « ابن سينا » : أنه لو لم يتجل الخير المطلق لما نيل منه ، ولو لم ينل منه لما كان ثَمة موجود ..

ومن هنا .. ينتهى فيلسوفنا إلى هذه النتيجة التى تصور مذهبه فى العشق والوجـود ، والتى تتلخص فى أن تجلى الخير المطلق باعتباره معشوقاً هو علة كل وجـود .

هذا فيمـا يتعلق بالناحيـة الأولى من ناحيتى نظريـة « ابن سينـا » فى العشق ، وهى ناحية اتصال العشق والوجود ، أو ترتب الوجود على العشق .

أما فيما يتعلق بالناحية الثانية لهذه النظرية ، وهى التى يكشف فيها الفيلسوف عن كيفية سريان العشق فى الموجودات ، فنحن نلاحظ معه أن البسائط غير الحية من الهيولى إلى الصورة إلى الأعراض ، والنفوس على اختلاف أنواعها من نباتية وحيوانية وبشرية وملكية ، كل أولئـك قد سرى فيه العشـق ، وفعـل فعله ، وآتى أكله ، فإذا بالعشق يقارنه دائماً ، وإذا هو لا يخلو من العشق أبداً .

فالهيولى [1] عاشقة للصورة تنزع إليها مفقودة ، وتولع بها موجودة ، بحيث إنها متى فقدت صورة ، لم تلبث أن تستبدل بها صورة أخرى ، وذلك إشفاقاً من ملازمة العدم [2] المطلق ، وإقبالاً على الاستمتاع بالموجود .

والصورة عاشقة لمواضعها الطبيعية ولكمالاتها ، فتلازم هذه الكمالات وتلك المواضع متى حصلت فيها ، وتشتاق إليها متى فارقتها وبانت عنها .

والأعراض عاشقة لموضوعها الذى تقوم به ، فهى جادة فى ملازمته ، دائبة على التشبث به ، كلما عرض لها استبدال موضوع بموضوع .

وفى (النفوس النباتية) بقواها المغذية والمنمية والمولدة عشق .

فبالقوة المغذية : تشتاق النفس النباتية إلى حضور الغـذاء عند حاجـة المـادة إليـــه .

---

(١) جمعها : هيوليات ، وهى : المادة الأولى .

(٢) العدم : الفقد .

وبالقوة المنمية : تشتاق النفس النباتية إلى تحصيل الزيادة فى أقطار المعتدى .

وبالقوة المولدة : تشتاق النفس النباتية إلى تهيئة مبدأ كائن مماثل للكائن الذى هو منه .

ويعنى : وجود الشوق فى هذه القوى الثلاث ، وجود العشق فى النفوس النباتية ، ملازماً لها .

وكل نفس من (النفوس الحيوانية) تختص بتصرف يدفعها إليه عشق غريزى ، سواء فى ذلك ما كان من قوى هذه النفس إحساساً ظاهراً ، أم إحساساً باطناً ، أو غضباً ، أو شهوة ، فقوة الإحساس الخارجى تألف بعض المحسومات دون بعض ، وتستكره بعضها دون بعض .

وقوة الإحساس الباطنى تطمئن إلى الراحة المنبعثة عن التخيلات المروحة إذا وجدت ، وتتشوق إليها إذا فقدت .

والقوة الغضبية : تنزع إلى الانتقام ، والتغلب والفرار من الذل ، والاستكانة ، وما إليها .

والقوة الشهوانية : تتحرك فى الحيوان غير الناطق بعشق طبيعى غريزى تحركاً اختياريا يتأدى به إلى توليد المثل ، ويتمشى مع ما اقتضته العناية الإلهية من استبقاء الحرث والنسل .

وفى الإنسان نفس جيوانية تصدر عنها أفعال ، وتظهر بها انفعالات ، وفيه نفس أخرى إلى جانب نفسه الحيوانية .

وأعنى بها نفسه الناطقة ، التى من شأنها أن تضفى على النفس الحيوانية من خصائصها وطبائعها ، ما يوجهها إلى وجهة أرقى وأسمى من تلك التى تتجه

إليها نفسه الحيوانية ، ولا تكاد تتجاوزها إلى ما يجل عليها ، ويدق عنها من المعانى السامية ، والحقائق العالية .

والإنسان بماله من نفس ـ حيوانية لها قوة غضبية ، وقوة شهوانية ، ونفس ناطقة لها قوة العقل ـ إنما يصدر فى أفعاله وأنظاره عن شوق ، فهو ينزع إلى الصور المستحسنة ويعشقها .

وهو فى عشقه لهذه الصور إما أن يعشقها لأجل لذة حيوانية فحسب ، وهذا منه مذموم وهو عليه ملوم ، وإما أن يعشقها باعتبار عقلى .

وهذا من شأنه : أن يسمو بنفسه ، ويزيد من خيريته ؛ لأنه هنا يقرب من المعشوق الأول الذى هو أشرف المعشوقات ، ويشبه عشقه أن يكون عشقاً لأشرف الأشياء وهى كالمعقولات .

وعشق الصورة الحسنة قد يستتبع ألواناً ثلاثة من الحب : حب المعانقة ، وحُب التقبيـــل .

وحُب المباضعة ، فحب المباضعة هو أقبحها .. لأنه لا يعنى إلا أن العشق من خصائص النفس الحيوانية .

فإذا قصد بهذا الحب إلى غرض آخر أسمى من إشباع الشهوة ، وهو توليد المثل إبقاءً على أشرف الأنواع وهو النوع الإنسانى ، لم يكن الحب مذموماً ، ولا المحب ملوماً .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى حب المعانقة ، وحب التقبيل : فهما مذمومان حيناً ، وممدوحـان حيناً آخر . مذمومان بحـكم ما يستتبعان من أمـور شهوانية فاحشة ، وممدوحان إذا كان الغرض فيهما هو أن يتقارب العاشق من المعشوق ،

وأن يتحد العاشق بالمعشوق ، بحيث يسكن فى النفس اشتياقها إلى معشوقها بحصولها عليه ، وتدانيها إليه ، وقنيتها له على وجه تمتلىء فيه حواسها منه عندما يختلط نسيم قلب العاشق بنسيم قلب المعشوق .

على أن هناك نوعاً آخر من النفوس هو أرق من النفوس الحيوانية ، وأسمى من النفوس الناطقة ، وعشقه بطبيعة الحال أروع وأمتع من عشق هذه أو تلك .

وهذا النوع من النفوس ، هو النفوس المتألهة . بشرية كانت أم ملكية ، وهذه النفوس المتألهة إنما استحقت أن تُسمى كذلك لأنها هى التى تفوز بمعرفة الخير المطلق ، ومن عرف خيراً : عشقه .

فهى إذن عاشقة للخير المطلق ، نزاعة إلى القُرب منه ، والاتصال به .

ولما كان الخير المطلق سبباً لوجود ذوات النفوس المتألهة ولكمالاتها ، وكانت معرفتها للخير المطلق هى التى توصلها إلى الكمال ، وذلك بتصورها لمعنى الكمال منه ، وكانت النفوس المتألهة مشتاقة إلى المعقولات ، وكان الخير المطلق هو المعقول الأول الذى به يصير كل معقول معقولاً فى النفوس ، وموجوداً فى الأعيان .. فلابد إذن من أن يكون للنفوس المتألهة ، الكاملة بالفعل ـ كالنفوس الملكية ، أو المستعدة للكمال كالنفوس البشرية ـ عشق غريزى فى ذاتها للحق المطلق أولاً ، ثم لسائر المعقولات بعد ذلك .

ولابد أيضاً من أن يظل هذا العشق فى تلك النفوس المتألهة لا يبرحها ، ولا يزايلها ، ولا يشغلها عنه شاغل ، لأنها إنما تعشقه ولوعاً به ، وقصداً إليه ، فى حين أنها تتصور غيره فى ثنايا تصورها له .

أو هى بعبارة أخرى تعشق الخير الأول المطلق بالأصالة ، وتعشق ما سواه من الخيرات بالتبعية .

وجماع القول فى نظرية « ابن سينا » فى العشق هو : أن الموجودات كلها من أبسطها إلى أكثرها تركيباً ، ومن أعلاها إلى أدناها ، إنما تدين فى وجودها وفيما يسرى فيها من حياة ، وما يصدر عنها من حركات للعشق الذى هو من أخص خصائص الذات الإلهية من ناحية ، وهو من ناحية أخرى من أقوى الفِطَر الغريزية التى طبع الله عليها الكائنات ، وجعلها بها مستعدة لقبول تجليه .

فعلى قَدْر عشق الله للكائن ، وفيضه عليه من تجلى ذاته ، وعشق الكائن للمعشوق الأول ، وهو الذات الإلهية ، وشوقه إليه ، وجدّه فى التشبه به ، واستعداده لقبول تجليه وفيض خيره وكماله وجماله ـ على قدْر هذا كله . يكون حظ الكائن من الوجود ، ونصيبه من الخير والكمال والجمال .

وهذا يعنى بعبارة أوضح : أن الموجودات إنما توجد ، وتنشط ، وتتحرك ، وتفعل لأنها عاشقة للمعشوق الأول ، ومعشوقة من المعشوق الأول ، لا سيما ما كان من هذه الموجودات نفوساً ملكية كاملة بالفعل ، أو نفوساً بشرية مستعدة للكمال ، فهى قد تحققت بالوجود والصفاء والنقاء ؛ لأنها تحققت بالكمال والخيرية لأنها عاشقة للخير الأول المطلق المحض ، ومعشوقة منه ، وجادة فى التشبيه به .

فالملك الإلهى الموسوم بالعقل الكلى هو أول ما يقبل تجلى الخير المطلق .

والعقل الفعال يقبل التجلى بإدراكه لذاته، ولسائر المعقولات فيه .

والنفوس الإلهية الملكية تتحرك وتفعل تشبيهاً بالخير المطلق .

والنفوس الإلهية البشرية تنال التجلى بتوسط العقل الفعال ، وإعانته لها على الإخراج من القوة إلى الفعل .

والنفوس البشرية تصدر فى أنظارها العقلية وأفعالها العملية عن تشبهها بالخير المطلق ، وذلك على قدر طاقتها ، وفى غاياتها وهى أن تكون عاقلة عادلة .

والنفوس الحيوانية والنباتية يفعل كل منها أفاعيله الخاصة به ، تشبهاً بالخير المطلق فى غاياته ، كإبقاء نوع ، أو شخص ، أو إظهار قوة .

والأجرام الطبيعية تتحرك حركاتها تشبيهاً بالخير المحض فى غايتها ، وهى البقاء على أخص الأحوال عند حصولها فى المواضع الطبيعية .

فكل أولئك : موجودات ، من طبعها أن تنال التجلى الإلهى ، فيتحقق لها الوجود ، وتتحق هى فى هذا الوجود بالخير ، والكمال ، والجمال ، بحيث تصبح فيما تستمتع به من هذا كله : آيات تشبه كثيراً ، أو قليلاً ، ذلك الخير الأسمى ، والكمال الأسنى ، والجمال الأبهى ، وألسنة تنطق بأنها ليست فى حقيقتها إلا ثمرة إلهية من ثمرات العشق ، ونفحة قُدسية من نفحاته .

* * *

(العشق فى حياة ابن زيدون)(*)

يتبين من أحوال الاجتماع فى الأندلس ، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الأديبات فى مجالس اللهو والطرب ، أن المرأة شغلت جزءا عظيماً من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت رؤوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم .

فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخمر تدير العقول وتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال ، والعقول ثِملَة بنشوة الغرام ، والرؤوس مثقلة بحرارة المدلم .

والناس لا يفوتهم الطرب ، ولايريدون أن يتواروا عنه لعُلقته بنفوسهم ، حتى فى أشد المحن .

فقد رأينا أن « ابن زيدون » [1] كَتَب وهو فى سجنه لصديقه « أبى حفص ابن برد » يقول :

وأدر ذكرى كاساً ... ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالى ... إنما العيش اختلاس

وقع « ابن زيدون » فى شرك « ولادة بنت المستكفى بالله » [2] وكانت خليعة ، ماجنة ، بارعة فى الجمال ، أديبة شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء

(*) الأستاذ أحمد ضيف .

(١) ابن زيدون ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومى الأندلسى (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ / ١٠٠٤ ـ ١٠٧١ م) .

(٢) ولادة بنت المستكفى بالله (٤٨٤ هـ ـ ١٠٩١ م) .

« تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . خرجت على نهاية فى الأدب والظرف حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر .

وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم ، والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكُتّاب على حلاوة عشرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب .

على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وقالوا : « إنها كانت بالمغرب « كعليّة بالمشرق » ، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق .

وأما الأدب ، والشعر ، والنادرة ، وخفة الروح .. فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة فى الغناء .

وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من النادر ، وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها .

وكانت من الأدب والظرف ، وتمتيع السمع والطَّرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشهب إلى أخلاق الشباب » .

فنال « ابن زيدون » رضاها ، ووقع من نفسها ، كما وقعت هى من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى ... فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلح ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره .. أقبلت بقدٍ كالقضيب ، وردفٍ كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المُقل ، على ورد الخجل . فملْنا إلى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، ورحيق الراح مزرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كُلٌ منّا بحبّه ، وشكا ما بقلبه ... وأنشدتها :

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخُطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا ... حفظ الله زمانًا أطلعك
إن يطُل بُعدك ليلى فلكم ... بتُّ أشكو قصر الليل معك

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

الا هل لنا من بعد هذا التفرق ... سبيل فيشكو كل صب بما لقى

إلى أن قالت :

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ... ولا للصبر من رِق التشوق معتقى
سقى الله أرضًا قد غدت لك منزلاً ... بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

ولا نريد الآن أن نتكلم فى (**العشق**) ، وأثره فى النفس ، وما يوحيه من روائع القول ، وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بحوادثه .

ولكنا نقول : إن (**العشق**) فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية ؛ لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الإدراك الإنسانى أكثر ما يكون ظهورًا فى التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الإنسانى الذى نسميه (**عشقًا**) .

فإن (**العشق**) إدراك أكبر مظاهر الجمال فى الحياة ، ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم يرَ غير ظواهرها ، ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون .

إن جمال مظاهر الحياة ، وأسرار النفوس فى التآلف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفيسة .

و (**العشق**) وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر ؛ لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل ؛ لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب ، ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقة وآلامه وآماله .

إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم ، وهى وصف شعور الناس .

والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام (**العشاق**) وأنينهم فيتألم ، ويئن معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين .

إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يجول بها من المعانى ويدفعها إلى النفوس ، فتصبوا إليها ، ويذيعها بين العشاق ، فيرى كُلّ قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا فى الشعر .

فإذا أخطأ العرب فى إمعانهم فى هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهى تكرار المعانى ، وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وأن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعانى محصورة فى ذلك .

ولكن « ابن زيدون » ليس من هؤلاء المقلدين ؛ بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة فى الخيال ، فكان فنياً مبدعاً .

أرأيت شعراء الغرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين :

الأول : إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شىء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على (عشقهم) ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التى كانت تسطع عليهم ، والأشجار التى كانت تظللهم ، والكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم جديرة بأن لا تنسى ؛ لأنها أثر من آثار (العشق) .

الثانى : أن الشاعر الفنى يفر من التكرار ، ويعرف أن معانى (العشق) والحب سرعان ما تنفذ ، فهو يتحايل على بث شىء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ؛ كى يتسنى له أن يجول فى ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل ، فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التى يريد أن يبرزها .

كذلك كان « ابن زيدون » من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم .. فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلِّى نفسه ، ويخفف عنها من أثر حبه « ولادة » ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك ، وأبدع أيما إبداع ، وافتتن افتتاناً عظيماً فى ذلك ، فقال :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طَلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله ... كأنما رَقَّ لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا

يوم كـــأيام لذّاتٍ لنا انصــرمت بِتْنا لهـــا حين نام الدهر سُرّاقــا

نلهـوا بما يسـتـمـيل العين من زَهَر جَـال النّدى فـيـه حـتى مـال أعناقـا

كـــأن أعـــينه إذا عـــاينت أرقى بكت لمَاَ بى فـجـال الدمع رَقـراقـا

ورد تألق فى ضـــاحى منابتـــه فـازداد منه الضـحى فى العين إشـراقـا

ســرى ينـافــحـــه نَيْلُوفَر عَبِقٌ وسنـان نبـه منه الصـبح أحـداقـا

كلٌّ يهـيـج لنا ذكـرى تشـوقنا إليك لم يعـد عنهـا الصدر إن ضـاقـا

لو كـان وَفّى المنى فى جـمـعنا بكم لكان من أكـرم الأيام أخـلاقـا

لأسـكـن الله قـلبـاً عَنّ ذكـــركـم فلم يطر بـجناح الشـوق خـفّاقـا

لو شـاء حـملى نسيم الريح حين هفا وافـاكـم بفـتى أضناه مـا لاقـا

كـان التـجـازى بمحض الودِ من زمن مـيـدان أنس جـرينا فـيـهـا اطلاقـا

فـالآن أحـمـد مـاكنا لعـهـدكم سلو تمو وبقـينا نحن عـشـاقـا

* * *

وإذا كان « لابن زيدون » ميزة فى شعره الغزلى ، فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس ، وتستولى على القلوب ، وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ، ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والأسلوب ، كما فى قوله :

إليك من الأنام غـــدا ارتيـــاحى وأنتِ من الزمـان مـدى اقـتـراحى

ومـا اعــتـرضت همـوم النفس إلا ومن ذكـــراك ريحـــانى وراحى

فـديتك أن صـبـرى عنك صـبـرى لـدىٌ عـطـشٌ عـن المـاء الـقَرَاح

ولىّ أملٌ لو الواشـــون كـــفــوا لأطلع غـــرســـه ثمـــر النَجـــاح

وأعـــجب كـيف يغلبنى عـــدو رضـــاك عليـه من أمـضى سـلاحى

ولما أن جلتك لى اخــتـــلاســـا أكـف الـدهـر للـحين المتـــاح

رأيتُ الشـــمس تطلع فى نقـــابٍ وغـــصن البـــان يَرفُلُ فى وشـــاح

فلو أســتطيع طرتُ إليكِ شـوقاً وكـيف يطير مـقـصـوص الجناح

وحـــــبى أن تطالعك الأمـــانى بأفـــقك فى مـــساء أو صـــباح
فـــؤادى من أسى بك غـــيـــر خـــالٍ وقلبى من هوىً لك غـــيـــر صـــاح
وإن تهـــدي الســـلام إلىّ شـــوقًا ولـو فـى بـعـض أنـفـــاس الـريـاح

* * *

ولقـد يسمع الإنسـان أنينه فى شعره ، ويرى نفسـه الحـزينة من خلال كـلامـه ، وكـأنه يرى تلك الحيـرة وذلك القلق النفـسى للذين يملآن نفـوس العشـاق ، ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها على أنه يلتذ لذكر محبوبته ، وتذوق الآلام فى سبيلها ، فيقول :

مـــتى أبـــيـك مـــابى يا راحـــتـى وعـــذابى
مـــتى ينوب لســـانى فى شـــرحـــه عن كـــتـابى
الله يـــعـــلـــم أنـــى أصـــبـــحت فـــيك لما بى
فـــلايـلـذ منامـى ولا يســـوغ شـــرابى
يافـــتـنة المتـــعـــزى وحـــجـــة المتـــصـــابى
الـشـــمـس أنت توارت عن ناظرى بالحـــجـــاب
مـــا البـــدر شف سناه على رقـــيق الســـحـــاب
إلا كـــــوجــــهك لما أضـــــاء تحت النقـــاب

وقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص فى حبه ، وأن حبه هـذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى فى سبيل العشق ما لايراه غيره ، ويهون عليه كل شيء فى سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو فخور بهذا كما قال :

أنّى تضـــيع عـــهـــدك أم كـــيف تخلف وعـــدك
وقـــد رأتك الأمـــانى رضى فلم تتـــعـــدك

ياليت شعرى وعندى مبنا ليس فى الحب عندك
هل طال ليلك بعدى كطول ليلى بعدك
سلنى حياتى أهبها فلست أملك ردك

على أننا لانبرئ « ابن زيدون » من التصنع أحياناً فيما يقول ؛ لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر .

كما قالوا أن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يغنى بها ، واستحسن ألحانها ، فأنشأ أبياتاً كأنها صادرة من عاشق متيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

يقصر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليلا
وإن عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى إن أطلت العثار ولم يبد عذرى وجهاً جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقيلا
لأقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى التى قيلت فى (العشق) ، فينظمها ويلبسها ثوباً جديداً ، وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما قال :

يا غزالا أصارنى موثقاً فى يد المحن
إننى مُذْ هجرتنى لم أذق لذة الوسن
ليت حظى إشارة منك أو لحظة تعن
شافعى يا معذبى فى الهوى وجهك الحسن

كنت خِلْواً من الهـــوى　　وأنا اليـــوم مـــرتهن
كـــان ســـرى مكتـــماً　　وهـو الآن قـــــد علـن
ليس لى عنك مـــذهب　　فكمـــا شـــئت لى فكن

وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح عذب الألفاظ سهل الأسلوب .

أما نونيته التى أرسل بها إلى « ولادة » وبثّها كثيراً من شعـوره وآرائـه المختلفة ، فهى على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها .

* * *

(رسالة فى ماهية العشق)

(لجماعة إخوان الصفاء) (*)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى « آللهُ خيرٌ أمَّا يُشْرِكُونَ » ؟

(النمل ـ آية ٥٩)

اعْلم أيها الأخ أنَّا نريد أن نذكر الآن فى هذه الرسالة ماهية العشق .. ومحبة النفوس ، والمرض الإلهى ، وما حقيقة ذلك ، ومن أين مبدؤه ، فنقول :

ـ اعلم أن الحكماء قد أكثروا القيل والقال فى فنونِ العلوم ، وطُرق المعارف ، وغرائب الحكم من الرياضيات ، والطبيعيات ، والفلسفيات ، والإلهيات .

ولكن بعض تلك العلوم والمعارف ألطف من بعض .

ونريد أن نذكر فى هذه الرسالة طَرفًا مما قالت الحكماء والفلاسفة فى ما هية العشق ، وكميّة أنواعه ، وكيفية نشوئه ومبدئه ، وما عِلَلُه الموجبة لكونه ، والأسباب الداعية إليه ، وما الغرض الأقصى منه ، إذا كان هذا أمرًا موجودًا فى العالم ، مركوزًا فى طباع النفوس ، دائمًا لا يعدم البتّة ما دامت الخليقة موجودة .

واعلم يا أخى أن من الحكماء من قد ذَكَر العشـق وذَمّه ، وذكر مسـاوئ أهله ، وقبح أسبابه ، وزعم أنه رذيلة .

(*) جماعة سرية : دينية وسياسية وفلسفية . عاشوا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . يذكر منهم خمسة : محمد بن مشير البستى الملقب بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، ومحمد بن أحمد النهرجورى ، والعوضى ، وزيد بن رفاعة .

ومنهم من قال : إن العشق فضيلة نفسانية ، ومَدَحَه ، وذَكَر محاسن أهله ، وزين أسبابه .

ومنهم من لم يقف على أسراره وعلله وأسبابه بحقائقها ودقّة معانيها ، فزعم أنه مرض نفسانى .

ومنهم من قال : إنه جنون إلهى .

ومنهم من زعم أنه هِمّة نفس فارغة .

ومنهم من زعم أنه فعل البطالين الفارغى الهمم الذين لا شغل لهم .

ولعمرى أن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهمّ إلا هَمّ المعشوق ، وكثرة الذِّكْر له ، والفكرة فى أمره ، وهيجان الفؤاد ، والولَه به وبأسبابه .

ولكن ليس ذلك من فعل البطالين الفُرّاغ ، كما زعم من لا خبرة له بالأمور الخفية ، والأسرار اللطيفة ، ولا يَعرف من الأمور إلا ما تجلى للحواس ، وظهر للمشاعر .

وأما الذى يُدرِكُ منها بصفاء الذّهن ، وجودة التمييز ، وكثرة الفكر ، وشدة البحث ، ودِقّة النظر ، فهُمْ عنها بمعزل .

وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفسانى ، أو قالوا : إنه جنون إلهى ، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يَعرِض للعشاق من سهر الليل ، ونحول الجسم ، وغؤور العيون ، وتوتر النبض والأنفاس الصُّعَداءَ ، مثل ما يعرض للمرضى ، فظنوا أنه مرض نفسانى .

وأما الذين زعموا أنه جنون إلهى ، فإنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم دواءً يعالجونهم به ، ولا شربة يسقونها إياهم ، فيبرؤون مما هم فيه من المحنة

والبلوى إلا الدعاء لله بالصلاة ، والقرابين فى الهياكل ، ورقى الكهنة .. وما شاكل ذلك كما حكى العاشق بقوله ، وهو « عروة بن حزام » (*) قتيل الحب :

بَذَلْتُ لعراف اليمامة حُكْمه ... وعراف نجد ، أ هما شَفَيَانى[1]
فما تركا من سلوة يعرفانها ... ولا رُقية إلا بها رَقَيَانى[2]
فقالا : شفاك الله ! والله مالنا ... بما ضمنت منك الضلوع ، يدان

وأشعار كثيرة للعشاق فى هذا المعنى .

وأما الحكماء والأطباء من اليونانيين فكانوا ، إذا أعياهم علاج مريض أو مداواة عليل ، وأيسوا منه ، حملوه عند ذلك إلى هيكل المشترى ، وتصدقوا عنه ، وصلوا لله تعالى ، وقرّبوا قُرباناً ، وسألوا الكهنة أن يدعوا الله بالشفاء ، فإذا برئ سَمّوا ذلك طِباً ومرضاً ، وجنوناً إلهياً .

ومن الحكماء من زعم أن العشق هو إفراط المحبة ، وشدة الميل إلى نوع من الموجودات دون سائر الأنواع ، وإلى شخصٍ دون سائر الأشخاص ، أو إلى شيء دون سائر الأشياء ، بكثرة الذّكر له ، وشدة الاهتمام به ، أكثر مما ينبغى .

فإن كان العشق هو ذا فليس إذاً أحد من الناس يخلو منه ، إذ كان لا يوجد أحد إلا وهو يُحب ويميل إلى شيء دون سائر الأشياء ، أكثر مما ينبغى .

وكثير من الحكماء والأطباء يُسمّون هذه الحال ماليخوليا .

(*) المتوفى (٣٠ هـ / ٦٥٠ م) .

(١) بذلت : الرواية المعروفة : جعلت .

(٢) السلوة : ما يُشرب ليسلى ، أو هو أن يؤخذ تراب قبر ميت فيجعل فى ماء فيسقى العاشق فيموت حبه ، أو هو دواء يسقاه الحزين فيفرحه ، ويروى البيت أيضاً :

فما تركا من حيلة يعلمانها ... ولا سلوة إلا بها سقيانى

وقد أكثر الأطباء القيل والقال فى هذه العلّة ، وأعياهم علاجها .

وقد ذُكرت فى كُتب أحكام المواليد عِلَل ذلك ، تركنا ذكرها مخافة التطويل لأنا نريد أن نتكلم فى العشق المعروف عند جمهور الناس ، وذلك أنهم لا يُسمُّون العشق إلا ماكان من هذه الحال ، نحو شخص من أبناء الجنس ، ذكرًا كان أو أُنثى .

ومن الحكماء من قال : إن العشق هو هوًى غالب فى النفس نحو طبع مُشاكلٍ فى الجسد ، أو نحو صورة مماثلة فى الجنس .

ومنهم من قال : إن العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد ؛ ولهذا فأى حال يكون عليها العاشق يتمنى حالاً أخرى أقرب منها ، ولهذا قال الشاعر (١) :

أُعانقها ، والنفس بعد مشوقةٍ	إليها ، وهل بعد العناق تدانى ؟
وألثمُ فاها كى تزول صبابتى ،	فيزداد ما ألقى من الهَيَمَانِ
كأن فؤادى ليس يشفى غليله ،	سوى أن يرى الروحين ممتزجانِ

وهذا القول أرجح ما قيل فيه ، وألطف ما أُشير إليه ، ونحتاج أن نشرح هذا الباب لتتضح حقيقته ، وتُعرف أسبابه .

ولكن لما كان الاتحاد هوًى نفسانياً ، وتأثيراً روحانياً ، احتجنا إلى أن نذكر أنواع النفوس ، وأنواع معشوقاتها ، وعلل تلك وأسبابها .

وأما الفرق بين العلل والأسباب ، فهو أن العلل كائنة فى طباع النفوس ، والأسباب خارجة منها كما نبين .

واعلم يا أخى أن النفوس المتجسدة لما كانت ثلاثة أنواع ، كما قال الحكماء والفلاسفة ، صارت معشوقاتها أيضاً ثلاثة أنواع :

(١) الشاعر : ابن الرومى ، (على بن العباس) « ٨٣٦ ـ ٨٩٦ م »

فمنها النفس النباتية الشهوانية ، وعشقها يكون نحو المأكولات والمشروبات والمناكح .

ومنها النفس الغضبية الحيوانية ، وعشقها يكون نحو القهر والغلبة وحب الرياسة .

ومنها النفس الناطقة ، وعشقها يكون نحو المعارف واكتساب الفضائل .

واعلم يا أخى ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنه ليس أحد من الناس يخلو من نوع من هذه الأنواع الثلاثة التى ذكرناها ، أو يكون آخذاً بنصيب من كل واحد منها قَلّ أو كثُر .

والعلة فى ذلك أنه لما كان من شأن النفوس أن تتبع أمزجة الأبدان فى إظهار أفعالها وأخلاقها ومعارفها ، وبخاصة ما كان أغلب منها فى المزاج ، وأقوى فى أصل التركيب ، وذلك أن كل إنسان يكون المستولى عليه ، فى أصل مولده ، القمر أو الزهرة وزحل ، فإن الغالب على طبيعته قوة النفس الشهوانية نحو المأكولات والمشروبات والجمع والادخار لها .

وإن يكن المستولى المريخ والزهرة أو القمر ، فإن الغالب على طبيعته شهوة الجماع والمناكح .

وإن كان المستولى على أصل مولده الشمس والمريخ ، فإن الغالب على طبيعته تكون شهوة النفس الغضبية نحو القهر والغلبة وحُب الرياسة .

وإن كان المستولى عليه ، فى أصل مولده ، الشمس وعطارد والمشترى .. فإن الغالب على طبيعته تكون شهوات النفس الناطقة نحو المعارف واكتساب الفضائل والعدل .

ولنرجع الآن إلى تفسير قول من قال من الحكماء : إن العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد ، فنقول : إن الاتحاد هو من خاصية الأمور الروحانية ، والأحوال النفسانية ؛ لأن الأمور الجسمانية لا يمكن فيها الاتحاد ؛ بل المجاورة والممازجة ، والمماسة لاغير ، فأما الاتحاد فهو فى الأمور النفسانية ، كما سنبين.

واعلم يا أخى أن مبدأ العشق ، وأوله : نظرة أو التفات نحو شخص من الأشخاص ، فيكون مثلها كمثل حبّة زُرعت ، أو غُصن غُرس ، أو نُطفة سقطت فى رحم بشر .. وتكون باقى النظرات واللحظات بمنزلة مادة تَنْصَبُّ إلى هناك ، وتنشأ ، وتنمو على مر الأيام ، إلى أن تصير شجرة ، أو جنيناً ، وذلك أن هِمَّة العاشق ومناه ، هو الدنو والقُرب من ذلك الشخص .

فإذا اتفق له ذلك وسَهُل ، تمنى الخلوة والمجاورة .

فإذا سَهُل ذلك : تمنى المعانقة والقُبلة .

فإذا سَهُل ذلك : تمنى الدخول فى ثوب واحد ، والالتزام بجميع الجوارح أكثر ما يمكن .

ومع هذه كلها الشوق بحاله لا ينقص شيئاً ؛ بل يزداد وينمو كما قيل :

أعانقها ، والنفس بعد مشوقة ، إليها ، وهل بعد العناق تدانى ؟
وألثم فاها كى تزول صبابتى ، فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله ، سوى ما يرى : زوجان ممتزجان

ثم اعلم أن روح الحياة إنما هو : بخارٌ رطبٌ يتحلل من الرطوبة والدم ، وينشأ فى جميع البدن ، ومنها تكون حياة البدن والجسم ، ومادة هذه الروح من استنشاق الهواء بالتنفس دائماً لترويح الحرارة الغريزية التى فى القلب .

فإذا تعـانق العاشق والمعشوق جميعاً ، وتباوسا ، وامتص كل واحد منهما ريق صاحبه وبَلعه ، وصلت تلك الرطوبة إلى معدة كل واحد منهما ، وامتزجت هناك مع الرطوبات التى فى المعدة ، ووصلت إلى جِرْم الكبد ، واختلطت بأجزاء الدم هناك ، وانتشرت فى العروق الواردة إلى سائر أطراف الجسد ، واختلطت بجـميع أجـزاء البـدن ، وصـارت لحمًـا ودمًـا وشـحماً وعروقًـا وعصبًـا .. ومـا شـاكل ذلك .

وهكذا .. أيضاً إذا تنفّس كل واحد منهما فى وجه صاحبه ، خرج من تلك الأنفاس شيء من نسيم روح كل واحد منهما ، واختلط بأجزاء الهواء .

فإذا استنشقا من ذلك الهواء ، دخلت إلى خياشيمهما أجزاء ذلك النسيم مع الهواء المستنشق ، ووصل بعضه إلى مُقدَّم الدِّماغ ، وسرى فيه كسَريان النور فى جِرم البلور ، واستلذّ كل واحد منهما ذلك التنسُّم ، ووصل أيضًا من أجزاء ذلك الهواء المستنشَقِ بعضٌ إلى جِرْم الرئة فى الحُلقوم ، ومن الرئة إلى جِرم القلب مع النبض فى العروق الضوارب إلى جميع أجزاء الجسد ، واختلط هناك بالدم واللحم ، وما شاكل ذلك من أجزاء الجسد ، وانعقد فى بدن هذا ما تحلل من جسد هذا ، وفى بدن هذا ما تحلل من جسد ذاك ، فيكون من ذلك ضروبٌ ، ومن المزاجات من تلك الأمزجة ضروبُ الأخلاط ، ومن تلك الأخلاط ضروب الأخلاق . كلٌّ ذلك بحسب أمزجة أبدانها .

ومن شأن النفس أن تتبع مِزاجَ البدن فى إظهار أفعالها وأخلاقها ؛ لأن مزاج الجسد ، وأعضاء البدن ، ومفاصله للنفس بمنزلة آلات وأدواتٍ للصانع الحكيم يُظهر بها ، ومنها أفعاله .

فلهذه الأسباب والعِلَل التى ذكرناها يتولد العشق والمحبة ، على مر الأيام ، بين المتحابَّيْن ، وينشأ وينمو .

فأما الذى يتغير من المحبة ويفسد بعد التأكيد ، فلأسباب يطول شرحها ؛ ولكن نذكر أولاً ما العلة فى محبة شخص لشخص ، دون سائر الأشخاص ، فنقول :

إن العلة فى ذلك : اتفاقُ مُشاكلة الأشخاص الفلكية فى أصل مولدهما بضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض ، وهى كثيرة الفنون ؛ ولكن نذكر منها طرفًا ليكون دليلاً على الباقية .

فمنها : أن يكون مولودهما ببرج واحد ، أو ربّ البرجين كوكب واحد ، أو يكون البرجان متفقين فى بعض المثانى كالمثلث ، أو تكون مطالعهما متساوية ، أو ساعات نهارهما متفقة ، وما شاكل ذلك مما يطول شرحه ــ يعرف حقيقة ما قلنا أصحاب الأحكام الناظرون فى مواليد الناس .

وأما تغير (العشق) بعد ثباته زمنًا طويلاً ، فهو تغير أشكال الفلك فى تحاويل سِنى مواليد الناس ، وسيُّر درجة الطالع ، وتنقُّلها فى حدود البروج والوجوه ، وهكذا تسييرات شعاعات الكواكب فى أبراج الانتهاءات فى مستقبل السنين .

واعلم يا أخى أن كل الكائنات التى دون فلك القمر ، فهى مربوطة الأحوال بحركات الأشخاص الفلكية .

* * *

* فصل فى ماهية علة فنون المعشوقات :

اعلم يا أخى أن كثيراً من الناس يظنون أن العشق لايكون إلا للأشياء الحسنة فحسب ! .

وليس الأمر كما ظنوا .. فإنه قد قيل : يارُبَّ مستحسن ما ليس بالحسَن !

ولكن العلّة فى ذلك هى الانفاقات التى بين (**العاشق**) والمعشوق ، وهى كثيرة لايحصِى عددها إلا الله جَلَّ ثناؤه .

ولكن نذكر منها طرفًا ليكون دليلاً على الباقية ، وذلك أن الاتفاقات بحسب المناسبات التى بين أجزاء المركبات .

فمن تلك المناسبات ماهى بين كل حاسة ومحسوساتها ، وذلك أن القوة الباصرة لا تشتاق إلا إلى الألوان والأشكال ، ولا تستحسن منها إلا ما كان على نسبة الأفضل ، وهكذا القوة السامعة لا تشتاق إلا إلى الأصوات والنغم ، ولا تستلذ منها إلا ما كان على النسبة الأفضل .

وعلى هذا القياس سائر الحواس .. كل واحدة منها لا تشتاق إلا إلى محسوساتها ، ولا تستحسن ولا تستلذ إلا ماكان منها على النسبة الأفضل بينهما فى الآفاق .

ولما كانت تراكيب أمزجة الحواس والمحسوسات كثيرة الفنون ، وكثيرة التغيير ، غير ثابتة على حالة واحدة ، صارت القوى الحساسة فى إحساسها لمحسوساتها مُفنَّنة متغيرة .

وذلك أنك تجد واحداً من الناس ، أو من الحيوان ، يستلذ مأكولاً ، أو مشروبًا ، أو مسموعًا ، أو مشمومًا ، والآخر لا يستلذه ؛ بل ربما كان يكرهه ، ويتألم منه .

وهكذا .. نجد الإنسان الواحد يستلذ فى وقتٍ ما شاء ويستحسنه ، وفى آخر يكرهه ، ويتألم منه . كل ذلك بحسب اختلاف التراكيب وفنون الأمزجة ، وما يعرِض لها ، وما يحدث بينها من المناسبات والمنافرات ، وشرحها طويل .

واعلم يا أخى .. أن الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية قد ربطت أطراف الموجودات بعضها ببعض رِباطًا واحدًا ، ونظمتها نظامًا واحدًا ، وذلك أن الموجودات لما كان بعضها عِللاً ، وبعضها معلولات ، ومنها أوائل ، ومنها ثوانٍ ، جَعلت فى جِبلة المعلولات نزوعًا نحو علاتها ، واشتياقًا إليها ، وجعلت أيضًا فى جبلة علاتها رأفة ورحمة وتحننًا على معلولاتها ، كما يوجد ذلك فى الآباء والأمهات على الأولاد ، ومن الكبار على الصغار ، والأقوياء على الضعفاء . لشدة حاجة الضعفاء إلى معاونة الأقوياء ، والصغار إلى الكبار ، كما أجاب رئيس قريش وحكيمها لما سأله « كسرى »[1] : أىُّ أولادك أحبُّ إليك ؟ .

فقال : صغيرهم حتى يكبر ، وعليلهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يرجع .

* * *

فصـــل

ثم اعلم أن الأطفال والصبيان ، إذا استغنوا عن تربية الآباء والأمهات ، فهم بعدُ يحتاجون إلى تعليم الأُستاذِينَ لهم : العلوم والصنائع ليبلغُوا بهم إلى التمام والكمال .

فمن أجل هذا .. يوجد فى الرجال البالغين رغبة فى الصبيان ، ومحبة للغلمان ، ليكون ذلك داعيًا لهم إلى تأديبهم وتهذيبهم ، وتكميلهم للبلوغ

---

(١) كسرى ، أو خسرو أنوشروان ملك ساسانى (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) .

إلى الغايات المقصودة بهم ، وهذا موجود فى جبلة أكثر الأمم التى لها شَغَف فى تعلُّم العِلْم ، والصنائع ، والأدب ، والرياضات ، مثل أهل فارس ، وأهل العراق ، وأهل الشام ، والروم وغيرها من الأُمم .

وأما الأُمم التى لا تتعاطى العلوم والصنائع والأدب ، مثل الأكراد والأعراب والزنج والترك ، فإنه قَلَّ ما يوجد فيهم ، ولا فى طباعهم الرغبة فى نكاح الغلمان ، وعشق المردان .

* عِشْقُ النساء :

وأما محبة النساء للرجال وعشقُها ، فإن ذلك فى طباع أكثر الحيوانات التى لها سِفاد [1] ، وإنما جُعلت تلك فى طبائعها لكيما يدعوها إلى الاجتماع والسفاد ، ليكون منها النتاج .

والغرض منها بقاء النسل ، وحفظ الصورة فى الهيولى بالجنس والنوع ، إذ كانت الأشخاص دائماً فى السيلان ، والغرض من هذه كلها بعيد من أفكار أكثر العقلاء !! ..

* * *

* فصل فى أنواع المحبوبات وما الحكمة فيها :

واعلم يا أخى ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن المحبة مُفَنَّنة والمحبوبات كثيرة لا يحصى عددها إلا الله ، ولكنّا نذكُر منها طرفًا ليكون دليلاً على الباقية .

فمن أنواع المحبوبات : محبة الحيوانات الازدواج والنكاح والسفاد ، لما فيه من بقاء النسل .

---

(١) معاشرة زوجية .

ومنها : محبة الأمهات والآدباء للأولاد ، وتحنُّنهم على الصغار ، وتربيتهم لهم ، وإشفاقهم عليهم ، كأنها مجبولة في طباعهم ، مركوزة فى نفوسهم ، لشدة حاجة الصغار إلى الكبار .

ومنها : محبة الرؤساء للرياسات ، وحرصهم على طلبها ، ومراعاتهم لمرؤوسيهم ، وحفظهم لهم ، وإشفاقهم عليهم ، ومحبتهم للمدح والثناء والشكر ، كأنها مجبولة فى طباعهم ، مركوزة فى نفوسهم .

ومنها : محبة الصنّاع فى إظهار صنائعهم ، وحرصُهم على تتميمها ، وشهوتهم لتحصيلها وتركيبها ، كأنه شيء مجبول فى طباعهم ، مركوز فى نفوسهم ، لشدة حاجتهم إليها .

ومنها : محبة التجار لتجارتهم ، ورغبة الراغبين فى الدنيا ، وحرصهم على الجمع والادخار لها وحفظها ، ومحبة عمارة الأرض ، وإصلاح الأمتعة وجمعها وحفظها ، كأنه شيء مجبول فى طباعهم ، مركوز فى نفوسهم ، لما فيه من الصلاح لغيرهم ، ومن يأتى من بعدهم .

ومنها : محبة العلماء والحكماء لاستخراج العلوم ، ووصف الآداب ، وتعليم الرياضات ، والبحث عن الغوامض ، والفحص عنها ، وتدوينها فى الكُتب والأدراج ، أُمة بعد أُمة ، وقَرنًا بعد قرن ، كأنه شيء مجبول فى طباعهم ، مركوز فى نفوسهم ، لما فيه من إحياء النفوس ، وإصلاح الأخلاق ، وصلاح الدين والدنيا معًا .

ومنها : محبة البِّر والإحسان ، وما يقال فيهما من المدح والثناء ، كأنه شيء مجبول فى طباع البشر ، مركوز فى نفوسهم ، لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق .

ومنها : محبة أبناء الجنس وما يسمى (**بالعشق**) ، وما يصف العشاق من أحوالهم وأحوال معشوقهم ، وما يجدون فى نفوسهم من الأفكار ، والهموم والأحزان ، والفرح والسرور ، والنشاط ، ومايذكرون من الأخلاق الجميلة ، والطرائق الحميدة وما يُذمُّون من الأخلاق المذمومة ، والأحوال المرذولة .

قالوا : لو لم يكن (**العشق**) موجوداً فى الخليقة ، لخَفِيَتْ تلك الفضائل كلها ، ولم تظهر ، ولم تُعرف تلك الرذائل أيضاً ! فقد بان وتبين ، إذاً بما ذكَرنا أن المحبة والعشق فضيلة ظهرت فى الخليقة ، وحكمة جليلة ، وخصلة نفيسة عجيبة .

ذلك من فضل الله عَلَى خَلْقه ، وعنايته بمصالحهم ، ودلالة لهم عليه ، وترغيباً لهم فيما أُمر به من المزيد .

واعلم يا أخى محبوبات النفوس ومعشوقاتها مفننة ، وهى بحسب مراتبها فى العلوم ، ودرجاتها فى المعارف .

وذلك أن النفْس الشهوانية لا يليق بها محبة الرياسة والقهر والغلبة .

ولا النفس الحيوانية يليق بها محبة العلوم والمعارف ، واكتساب الفضائل .

ولا النفس المَلكية يليق بها محبة الأجساد والكون مع الأجسام اللحميّة والدموية ؛ بل الذى يليق بها محبة فراق الأجساد ، والارتقاء إلى ملكوت السماء ، والسِّيحان فى سعة فضاء الأفلاك ، والتَّنَسُّم من ذلك الروح والريحان المذكور فى القرآن .

ومن أجل هذا الذى ذكرنا من مراتب النفوس وما يليق بها من المعشوقات ، أنك لاتجد ، ولا ترى نفساً تُحِب ، وتعشق ، وتشتاق إلا لأبناء جنسها ، وما شاكلها من المحبوبات والمعشوقات .

مثـال ذلك أنفس الصبيـان والنـاقصين من الـناس ، فإنهم لا يُحـبون ، ولا يعشقون إلا اللعب ، والتماثيل المصورة والمزينة ، المُشـاكلة لمرتبـة نفوسهم ، فإذا عَقلوا وتعلموا وارتاضوا ، ارتفعت هممهم وشُغِلَت نفوسهم بغيرها مما هو أشد تحقيقاً مما كانوا فيه ، وهو الصورة من الأشكال والمحاسن ، والزينة الموجودة فى الأشكال والأجساد اللحمية ، من الحيوان والناس ، وهى المحبوبة المرغوبة فيها ، المشتهاة المعشوقة عند أكثر الناس من البالغين العقلاء .

فإذا ارتاضت نفوسهم فى العلوم الإلهية والمعارف الربانية ، ارتفعت نفوسهم أيضاً عن هذه الصور والتماثيل المزوّقة الموجودة فى اللحم والدم إلى ما هى أشرف منها وأفضل ، وهى الصورة للنفوس ذوات الحسن والبهاء والكمال والجمال التى تراها النفوس الناطقة الناجية فى عالم الأرواح .

ثم اعلم أنه لما قَصُرت أفهامُ كثير من الناس عن تصورها ، وقلّت معرفتهم بها ، رَضوا بهذه الصورة والأشباح الجسمية الجسدانية المؤلّفة من اللحم والدم ، والصـديد [1] ، واطمأنوا إليها ، وسكنوا إليهـا ، وتمنّوا الخـلود بها لنقص نفوسهم ، كما ذَكَر الله تعالى :

« **رضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون** » [2] .

وآيات كثيرة فى القرآن فى هذا المعنى .

ثم اعلم يا أخى أنه مقرر فى طباع الموجودات ، وجبلة النفوس ، محبة البقـاء ، والدوام السرمدى ، على أتم الحالات ، وأكمل الغايات .

---

(١) الصديد : ماء الجرح الرقيق ، أو هو القيح المختلط بالدم .
(٢) سورة يونس ــ آية ٧ .

وأتم حالات النفس الشهوانية بأن تكون موجودة أبداً ، تتناول شهواتها ، وتتمتع بلذاتها التى هى مادة وجود أشخاصها ، من غير عائق ولا تنغيص .

وهكذا .. من أتم حالات النفس الحيوانية أن تكون موجودة أبداً ، رئيسة على غيرها ، قاهرة لمن سواها ، منتقمة ممن يؤذيها من غير عائق ولا تنغيص .

وهكذا أيضاً .. من أتم حالات النفس الناطقة أن تكون موجودة أبداً ، مدركة لحقائق الأشياء ، متصورة لها ، متلذذة بها ، مسرورة فرحانة بلا عائق ولا تنغيص .

وإنما صارت النفوس الناطقة متلذذة بالعلوم والمعارف ؛ لأن صُور المعلومات ـ فى ذاتها ـ هى المتممة لها ، المكملة لفضائلها ، المُبلِّغة لها إلى أتم غاياتها ، وأفضل نهاياتها عند باريها ، جَلَّ ثناؤه ، كما قال تعالى :

« فى مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مُقتدر » [1] .

ثم اعلم أن هذه الأحوال لا تليق بالنَّفْس الشهوانية ، ولا بالنفس الغضبية؛ ولكن تليق بالنفس الناطقة ، إذا هى انتبهت من نوم الغفلة ، واستيقظت من رقدة الجهالة ، وانفتحت لها عين البصيرة ، وعاينت عالمها ، وعرفت مبدأها ومَعادَها ، واشتاقت عند ذلك إلى باريها ، وتاقت وحنَّت إليه ، كما يحن العاشق إلى معشوقه ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى :

« والذين آمنوا أشَدُّ حُبّاً لله » [2] .

يعنى من كل محبوب سواه .

---

(١) سورة القمر ـ آية ٥٥ .

(٢) سورة البقرة ـ آية ١٦٥ .

ثم أعلم أن كل نفس ، إذا أحبت شيئاً ، اشتاقت وحنّت نحوه ، وطلبته وتوجهت نحوه حيث كان ، ولم تلتفت إلى شيء سواه ، ولم تُعرّج عليه كما قال الشاعر :

أحبُّ حبيباً واحداً لست أبتغي ... مدى الدهر ، عنه ، ما حييت بديلاً
فإن ظَفَرت كَفّي به فهو بُغيتي ... وإن فات ، ما أبغي سواه خليلاً

ثم اعلم أن كل مُحب لشيء من الأشياء ، مشتاق إليه ، هائم به ، وأنه متى وصل إليه ، ونال ما يهواه منه ، وبلغ حاجته من الاستمتاع به والتلذذ بقُربه ، فإنه ولابد يوماً من أن يفارقه ، أو يملّه ، أو يتغير عليه .

وتذهب تلك الحلاوة ، وتتلاشى تلك البشاشة ، ويخمد لهب ذلك الاشتياق والهيَجان ، إلا المحبين لله تعالى من المؤمنين والمشتاقين إليه من عباده الصالحين ، فإن لهم كل يوم من محبوبهم قربة ، ومزيداً أبد الآبدين ، بلا نهاية ولا غاية .

وإلى المحبيين لسواه ، عز وجل ، أشار بقوله :

« كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجدهُ شيئاً » [١] .

ثم عطف نحو محبيه فذكر حالهم وكنى عن ذِكْرهم وإلى نحو ذكرهم فقال تعالى :

« ووجد الله عنده فوفاه حسابه » [٢] .

يعنى عند المحب .

وكما رُوِى فى الخَبَر عن « موسى » ، عليه السلام ، أنه نادى ربه فقال:

ـ **« يارب أين أجدك ؟ »** .

(١) ، (٢) سورة النور ـ آية ٣٩ .

فقـــال :

ـ « **عند المنكسرة قلوبهم من أجلى** » .

وقال عليه السلام :

ـ « **اعبد الله كأنك تراه ، فإن لَمْ تكُنْ تراه .. فإنه يراك** » (١) .

ثم اعلم أن رؤيــة أوليــاء الله تعــالى ، جلّ اســمــه ، ليســت كـرؤية الأشـخـاص ، والأشـبـاح ، والصـور ، والأجـناس ، والأنواع ، والجـواهر ، والأعراض ، والصفات والموصوفات فى الأماكن والمحاذيات ؛ ولكن بنوع أشرف منها وأعلى ، وفوق كل وصفٍ جسمــانى ، ونعتٍ جِرْمــانى ، وهى رؤيـة نور بنور ، لنور فى نورٍ من نور ، كما قال تعالى :

« **الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصـباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية** » (٢) .

أى لا صورية ولا هيولانية .

ثم اعلم أن الغرض الأقصى من وجود (**العشق**) فى جبلة النفوس ، ومحبتها الأجساد ، واستحسانها لها ولزينة الأبدان ، واشتياقها إلى المعشوقات المفتتنة ، كل ذلك إنما هو تنبيه لها من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، ورياضة لها وتعريج لها وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة ، ومن الرتبة الجرمانية إلى المحـاسـن الروحانية ، ودلالة على معرفة جوهرها ، وشرف عنصرها ، ومحاسن عالمها ، وصلاح معادها .

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية ...

(٢) سورة النور ـ آية ٣٥ .

وكل ذلك أن جميع المحاسن والزينة ، وكل المشتهيات من المرغوب فيها الذى يُرى على ظواهر الأجرام وسطوح الأجسام ، إنما هى أصباغ ونقوش ، ورسوم قد صورتها النفس الكلية فى الهيولى الأولى ، وزيّنت بها ظواهر الأجرام وسطوح الأجسام ، حتى إذا نظرت إليها النفوس ، الجزئية ، حنّت إليها ، وتشوّقت نحوها ، وقصدت لطلبها بالنظر إليها ، والتأمل فيها ، والتفكر فيها ، والاعتبار لأحوالها .

كل ذلك كيما تتصور تلك الرسوم والمحاسن والنقوش فى ذاتها ، وتنطبع فى جوهرها ، حتى إذا غابت تلك الأشخاص الجرمانية عن مشاهدة الحواس لها ، بقيت تلك الرسوم والصور المعشوقة المحبوبة مُصوّرة فيها أعين النفوس الجزئية ، صورة روحانية ، صافية ، باقية معها معشوقاتها ، متحدة بها ، لا تخاف فراقها ، ولا فواتها أبدا .

والدليل على ما قلناه ، وصحة ما وصفنا معرفة مَنْ عَشِقَ يوماً من أيام عُمره لشخص من الأشخاص ثم تسلّى عنه ، أو فَقَده ، أو تغيّر عليه ، ثم إنه وجده من بعده ، وقد تغيّر عما كان عليه ، وعَهِده من الحُسن والجمال وتلك الزينة والمحاسن التى كان رآها على ظاهر جسمه .

فإنه متى رَجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك الرسوم والصور التى هى باقية فى نفسه منذ العهد القديم ، وجدها بحالها تلك ولم تتغير ، ولم تتبدل ، ورآها برُمّتها ، فتشاهد النفس فى ذاتها حينئذ تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ، ما كانت من قبل تراها على غير تغير ، وتجد فى جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها .

فعند ذلك تبين له ، وَعلِمَ أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هى تلك الرسوم والصور التى كان يراها على ذلك الشخص ، وهى اليوم يراها منقوشة فى نفسه ، مرسومة فى جوهره ، مصورة فى ذاته ، باقية لم تتغير ! .

فإذا فكر العاقل اللبيب فيما وصفنا ، انتبهت نفسه من نوم غفلتها ، واستيقظت من رقدة جهالتها ، واستقلت بذاتها ، وفازت بجوهرها ، واستغنت عن غيرها ، وكان حالها كما وصف المحب بقوله :

قد كنت آلفُ موطنًا وتشوّقنى ، نحو الأحبة ، لوعة ما تُنكر
والآن مالى مصدر عن موردى ، ما للعبيد عن الموالى مَصدر

فاستراحت نفسه عند ذلك من تعبها وعنائها ، ومُقاساة صُحبة غيرها ، وتخلصت من السقام الذى لايزال يعرض لعاشقى الأجرام ، ومُحبى الأجسام ، حسب ما وصفوه فى أشعارهم ، وشكوه من أحوالهم ، كما قال بعضهم :

وما فى الأرض أشقى من مُحب ، وإن وجد الهوى حُلو المذاق
تراه باكيًا ، فى كل حين ، مخافة فُرقة أو لاشتياق
فيبكى ، إن نأى ، شوقًا إليه ، ويبكى ، إن دَنَاه ، خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائى ، وتسخَنُ عينه عند التلاقى

* * *

* فصل : من ابْتُلِىَ بعشْق :

ثم اعلم أن من ابتُلى بعشق شخص من الأشخاص ، ومرّت به تلك المِحَن والأهوال ، وعرضت تلك الأحوال ، ثم لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها ، فيتسلى ويَفيق ، أو نسى وابتُلى من بعد بعشق ثانٍ لشخص آخر ، فإن نفسه نفس غريقة فى عمائها ، سَكْرى فى جهالتها كما قيل :

تسلّت عَمايات الرجال عن الصبا   وما إن أرى عنك الغواية تنجلى[1]

ثم اعلم أن فى الناس خواص وعوام ، فالعوام من الناس هم الذين إذا رأوا مصنوعاً حسناً ، أو شخصاً مُزيَّناً ، تشوقت نفوسهم إلى النظر إليه ، والقُرب منه ، والتأمل فيه .

وأما الخواصُّ ، فهم الحكماء الذين إذا رأوا صنعة محكمة أو شخصاً مزيَّناً ، تشوقت نفوسهم إلى صانعها الحكيم ومُبدئها العليم ، ومصورها الرحيم ، وتعلقت به ، وارتاحت إليه ، واجتهدوا فى التشبه به فى صنائعهم ، والاقتداء به فى أفعالهم ، قولاً وفعلاً ، وعلماً وعملاً .

ثم اعلم أن النفوس الناقصة تكون قصيرة الهِمَم ، لاتحب إلا زينة الحياة الدنيا ، ولا تتمنى إلا الخلود فيها ؛ لأنها لا تعرف غيرها ، ولا تتصور سواها .

فأما النفس الشريفة المرتاضة فهى تأنف من الرغبة فى الدنيا ؛ بل تزهد فيها ، وتريد الآخرة وترغب فيها ، وتتمنى اللحوق بأبناء جنسها وأشكالها من الملائكة ، وتشتاق إلى الترقّى إلى ملكوت السماء ، والسيحان فى سعة فضاء الأفلاك ؛ ولكن لا يمكن إلا بعد فراق الجسد على شرائط محدودة .

واعلم أن نفوس الحكماء تجتهد فى أفعالها ، ومارفها ، وأخلاقها فى التشبه بالنفس الكلية ، وتتمنى اللحوق بها .

والنفس الكلية أيضاً كذلك ، فإنها تتشبه بالبارى فى إدارتها الأفلاك ، وتحريكها الكواكب ، وتكوينها الكائنات ، كل ذلك طاعة لباريها ، وتعبداً له ، واشتياقاً إليه .

(١) البيت لامرئ القيس من معلقته .

ومن أجل هذا قالت الحكماء : « **إن الله هو المعشوق الأول ، والفلك إنما يدور شوقًا إليه ، ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات ، وأكمل الغايات ، وأفضل النهايات** » .

ثم اعلم أن الباعث للنفس الكلية ، على إدارة الفلك ، وتسيير الكواكب ، هو الاشتياق منها إلى إظهار تلك المحاسن والفضائل والملاذ والسرور التى فى عالم الأرواح التى تقصرُ أَلْسُن الوصف عنها إلا مختصراً كما قال تعالى :

« **فيها ما تشتهى الأنفُس وتلذ الأعيُن** » .

(سورة الزخرف ـ آية ٧١) .

ثم اعلم أن تلك المحاسن والفضائل والخيرات كلها إنما هى من فيض الله وإشراق نوره على العقل الكلّى ، ومن العقل الكُلّى على النفس الكلية ، ومن النفس الكلية على الهيولى ، وهى الصورة التى ترى الأنفس الجزئية فى عالم الأجسام على ظواهر الأشخاص والأجرام التى من محيط الفلك الى منتهى مركز الأرض .

ثم اعلم أن مَثَل سَريان تلك الأنوار والمحاسن ، من أولها إلى آخرها ، كمثَل سَريان النور والضياء الذى فى ليلة البدر منبعثًا من جرم جوهر القمر على الهواء ، والذى على جِرم القمر من الشمس ، والذى على جرم الشمس والكواكب جميعًا من إشراق النفس الكلية ، والذى على النفس الكلية من العقل الكلى ، والذى على العقل الكلى من فيض البارى وإشراقه ، كما قال الله تعالى :

« **الله نور السموات والأرض** » .

(سورة النور ـ آية ٣٥) .

فقد تبين بما ذكرناه أن « الله » هو المعشــوق الأول ، وأن كل الموجودات إليه تشتاق ، ونحوه تقصد ، وإليه يرجع الأمر كله ؛ لأن به وجودها ، وقوامها ، وبقاءها ، ودوامها ، وكمالها ؛ لأنه هو الموجود المحض ، وله البقاء والدوام السرمد ، والتمام والكمال المؤيد ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاهلون عُلّواً كبيراً .

بلغك الله ، أيها الأخ ، إليه ، وتمم نورك كما وعد أولياءه وأصفياءه من عباده ، وذلك قوله تعالى :

« يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم »[١] .

« يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شئ قدير »[٢] .

وفقك الله وإيانا ، وجميع إخواننا الكرام إلى طريق السداد ، وهداك وإيانا ، وجميع إخواننا سبيل الرشاد ، إنه رءوف بالعباد .

تمت رسالة ماهية العشق

* * *

---

(١) سورة الحديد ـ من آية ١٢ .

(٢) سورة التحريم ـ من آية ٨ .

١ ـ العشق عند شهاب الدين السهروردى : [١]

(الجمال .. والعشق .. والقلق)

* فى (مؤنس العشاق) يتكلم « السهروردى » عن الإخوة الثلاث المتولدين عن العقل الأول ، وهم :

(الجمال ، والعشق ، والقلق)

وهم أشخاص « يوسُف » ـ عليه السلام ـ و « زُلَيّخا » ، و « يعقوب » عليه السلام .

وتشير القصة فى أول الأمر إلى : « **أن أول شىءٍ خَلَقَهُ الله : جوهر منير ، يُطلق عليه اسم (العقل) ؛ لأنه حسب النص :**

ـ « أن أول ما خَلَقَ الله : العقل » .

ووهب هذا الجوهر ثلاث صفات : معرفة الله .. ومعرفة نفسه .. ومعرفة ما لا يلحق به الوجود .

ومنذ وُجدت لديه القُدرة على معرفة الله ، تولّد عنها الخير ، ويُطلق على الخير ـ فى نفس الوقت ـ (الجمال) .

وقد تولدت عن معرفته لنفسه : الرغبة التى نسمّيها (العشق) .

---

(١) هو : يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح شهاب الدين السهروردى ، ولد فى سهرورد بالعراق (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ / ١١٥٤ ـ ١١٩١ م) .

وقد تولد الانشــغال ـ الذى نسميه القلق ـ عن الصفة المتصلة بمعرفته للوجود ، واللاوجود ..

وهذه الأشـياء التى تتولد عن مصدر واحـد ، تجتمع ليكون منها إخـوة ثـلاث » [1] .

* * *

(١) د . محمد على أبو ريان .

٢ ـ العشق عند شهاب الدين السهروردى :

(العشق الكامل)

* القهر .. والمحبة :

* هاتان الصفتان تعبير « للسهروردى » عن الإشراق والمشاهدة .. وذلك لأن القهر معناه الإحاطة ، أو السيطرة ، أو الإيجاد .. وهذا هو معنى الإشراق ..

والمحبة معناها الانقياد للأكمل ، وذلك عن طريق محاكاته بالمشاهدة ، إذن .. فالمبدأ الأساسى لسلسلة الفيوضات هو هاتان الحركتان ، وهما تنطبقان على الوجود بأكمله ، ويبدو من تطبيقهما أن يصبح كل نور سافل مقهوراً للنور العالى ، وله محبة بالنسبة له ..

وتفضيل ذلك .. أن النور العالى ، أى الأكثر نورية ؛ لأنه الأقرب إلى نور الأنوار ..

هذا النور يغلب الأنوار الضعيفة ، ويسيطر عليها .. وهذه الأنوار الأخيرة ـ لضعفها ، ونقص نوريتها ـ لا تستطيع أن تحيط بالنور الذى هو أعلى منها مرتبة ..

وهذا لا يعنى أن هناك حجاباً بين العالى والسافل .. بل إن المقصود أن النور السافل لا يدرك من النور العالى إلا ما فى قدرته أن يدركه منه .. وذلك مثلما لا نستطيع الإحاطة بجميع ضوء الشمس لضعف نورنا البصرى .

وكما أن للعالى على السافل قهراً .. هكذا للسافل إلى العالى شوقاً ، ومحبة ..

و « هذا الشوق ـ أو (العشق) ـ حركة إلى تتميم كمال ظنى ، أو عقلى ، أو غيرهما » .. إذ (**العشق**) من ناقص إلى كامل ..

وكلما كان الإدراك أتم ، والمدرك أكمل . كان (**العشق**) أشد ، ونور الأنوار أكمل الموجودات ..

ولذلك .. فهو (**المعشوق**) الأول .. أو هو (**يعشق**) نفسه ؛ لأن كماله أشد ظهُورية له من غيره .. فهو (**عاشق**) لنفسه ، و (**معشوق**) أيضاً ..

وظهور ذاته لذاته يولِّد عنده لذة .. وهذه اللذة هى الشعور بالكمال الحاصل من حيث هو كمال ..

ولا تزيد لذاته و (**عشقه**) لذاته شيئاً على ذاته .. والأنوار كلها (**تعشقه**) ، وتتلذذ به ، لكونه الأجمل والأكمل .. فانتظم الوجود كله من المحبة ، والقهر[1] ..

و « (العشق) هو أساس ديناميكية حركة الصدور » .

* * *

---

(١) د . محمد على أبو ريان . أصول الفلسفة الإشراقية ..

١ - العشـق .. عـند (ابن العـربى) (*)

(العشــق)

هـو إفراط المحبـة ، أو المحبـة المفـرطة ، وهو معنى من المحبـــوب يقع به العشـــق .

وهو الذى يوقد نار الشوق والوجد الذى فى القلب ، هو لا يكون إلا لتجلى الاسم الجميل .

وكنى عنه فى القرآن بشِدَّة الحُب فى قوله :

﴿ والذين آمنوا أشد حُبًا لله ﴾ .

وهو قوله « قد شَغَفَهَا حُبًـا » أى حبها « يوسف » على قلبها كالشـغاف ، وهى الجلدة الرقيقة التى تحتوى على القلب فهى ظرف له محيطة .

وقد وصف الحَقُّ نفْسه فى الخبر بشدة الحب ، غير أنه لا يُطلق على الحق اسم العشق والعاشق .

فالعشق التفاف الحب على المحب حتى خالط جميع أجزائه ، واشتمل عليه اشتمال الصمَّاء ، مشتق من العشقة وهى اللبلابة المشوكة .

ولابد من سبب ورابطة بين العاشق والمعشوق حتى التف به على الاختصاص دون غيره ، فإنه يراه فى عينه أجمل ممن هو أجمل منه فى علمه .

---

(١) من كلام الشيخ محيى الدين بن العربى . (هو الشيخ مجمد بن على بن محمد بن عربى الحاتمى الطائى الأندلسى (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ / ١١٦٥ ـ ١٢٤٠) .

ولذا يكون (**العاشق**) تحت سلطان (**المعشوق**) ، وإن كان عبده ، فينتقل الحكم على السيد للعبد إذا كان معشوقاً له .. فيكون تحت أمره ، فيتخيل أنه يراه أعظم عنده من نفسه ، وأن سعادته فى عبوديته ، وذلّته بين يديه ، مع أنه يحب الرياسة بالطبع .

فإن (**العشق**) قد يكون روحانياً ، فردّه إلى ما تقتضيه حقيقة الروح ، وأن الروح لا رياسة عنده فى نفسه ، ولا يقبل الوصف بها .

فإن (**العشق**) منه روحانى وطبيعى لوجوده من الحيوانات والنبات .

فإذا كان (**العشق**) من الإنسان لجارية ، أو غلام يفنى فيه ، ولا يستفرغ مثل هذا الاستفراغ فى حب من ليس بإنسان من ذهب وفضة ، وعقار وغير ذلك .

فالإنسان إذا ما عشق من العالم أى شىء كان من فرس ، أو دار ، أو دينار ، أو درهم ، فما قابله إلا بالجزء المناسب ، فَفَنى منه ذلك الجزء المناسب لعشقه فيه ، وبقى سائره صاحياً لا حُكم له فيه ، إلا إذا عشق شخصاً مثله من جارية أو غلام فإنه يقابله بكُلّه .

كذلك العبد إذا رأى الحق أو تخيله ، فَنى فيه عند مشاهدته ؛ لأنه على صورته ، فيقابله بذاته ، فما بقى فيه جزء يصحو حتى يعقل به ما فَنى منه فيه ، فيستفرغ المحب فى محبة الحق وحده دون ما ذكرناه .

فإن الإنسان إذا أحب الله تعالى .. فمن حيث روحه وطبعه ، ولو أن الحب الطبيعى لا يليق أن يتعلق من المحب بالجانب الإلهى ؛ ولكن هو من صورة الجمع بين الضدين ، ومن حيث التجلى الإلهى المقيد فى الصور الطبيعية ، فلا يستغرق الحب المحب كله إلا إذا كان محبوبه الحق تعالى أو أحداً من جنسه

من جارية أو غلام ، أما ما عدا ما ذكرته ، فإنه لا يستغرق حبه إياه ، وإنما قُلنا ذلك لأن الإنسان لا يقابل بذاته كلها إلا من هو على صورته إذا أحبه ، فما فيه جـزء إلا وفيه ما يسائله ، فلا يبقى فيه فضلة يصحو بها جملة واحدة ، فيهيم ظاهره فى ظاهره ، وباطنه فى باطنه .

ألا ترى الحـق قد تسـمى بالظاهر والباطن ، فتستغرق الإنسـان المحبة فى الحق ، وفى أشكاله ، وليس ذلك فيما سوى الجنس من العالم ، فإنه إذا أحب صورة من العالم إنما يستقبله بالجـزء المناسب ، ويبقى ما بقى من ذاته صاحية فى شغلها .

وأما استغراق حبه إذا أحب الله .. فلكونه على صورته كما ورد فى الخبر ، فيستقبل الحضرة الإلهية بذاته كلها ، ولهذا تظهر فيه جميع الأسماء الإلهية ، ويتخلق بها من ليست عنده صفة الحب وبكونها (أى من باب كُنْتُ سَمْعَهُ) من عنده صفة الحب ، فلهذا يستغرق الإنسان الحب ، وإذا تعلق بالله ، وكان الله محبوبه ، فيفنى فى حبه فى الحق أشد من فنائه فى أشكاله ، فإنه فى حُب أشكاله فاقد فى غيبته ، ظاهر المحبـوب ، وإذا كان الحق هو المحبـوب فهـو دائم المشـاهدة ، ومشاهدة المحبوب كالغذاء للجسم ، به ينمى ويزيد .. فكلما زاد مشاهدة ، زاد حُبًا .

ولما كان الشوق يسكن باللقاء ، والاشتياق يهيج باللقاء ، وهو الذى يجده العشـاق عند الاجتمـاع بالمحبـوب ، لا يشبع من مشاهدته ، ولا يأخذ نهمته منه ؛ لأنه كلما نظر إليه ، زاد وجداً به ، وشوقاً مع حضوره معه ، كما قيل :

ومن عـجب أنى أحن إليـهم ... وأسـأل شـوقا عنهم وهم مـعى
وتبكيـهم عـينى وهم فى سـوادها ... وتشـتـاقـهم نفسى وهم بين أضلعى

فالعاشق إن راح المعشوق ، لم يُرح خياله .

والمحب إذا ذهب المحبوب ، لم يذهب مثاله .

فالصبابة به أبداً معلقة ، وزفرة وَجْده فى ضلوعه محرقة ، يقول المحب :

ـ « ماللوجد تجرعنى كأسه .

« ماله تحرقنى أنفاسه .

« ويل المشجى من الخلى .

فإذا ظهر الحب فى حبة القلب ، وعَمَّ الإنسان بجملته ، وأعماه عن كل شىء سوى محبوبه ، وسَرَتْ تلك الحقيقة فى جميع أجزاء بدنه وقواه وروحه ، وجرت فيه مجرى الدم فى عروقه ولحمه ، وغمرت جميع مفاصله ، فاتصلت بوجوده ، وعانقت جميع أجزائه جسماً وروحاً ، ولم يبقَ فيه متسع لغيره ، وصار نطقة به ، وسماعه منه ، ونظره فى كل شىء إليه ، ورآه فى كل صورة ، ومايرى شيئاً إلا يقول هو هذا .

حينئذٍ سُمِّى ذلك الحب عشقاً ، كما حُكِىَ عن « زُليخا » أنها افتصدت ، فوقع الدم فى الأرض ، فانكتب به « يوسُف .. يوسُف » فى مواضع كثيرة حيث سقط الدم لجريان ذكر اسمه مجرى الدم فى عروقها كلها .

وهكذا .. حُكى عن « الحلاج » لما قُطعت أطرافه ، انكتب بدمه فى الأرض « الله .. الله » حيث وقع ؛ ولذلك قال رحمه الله :

ماقَدّ لى عضو ولا مفصل — إلا وفيه لكمُ ذِكْر

وهذا يعضده مقام الخلة حيث يقول القائل :

وتخللت مسلك الروح منى — وبذا سُمِّى الخليل خليلا

فهؤلاء هم (**العشاق**) الذين استهلكوا فى الحب هذا الاستهلاك .

قال الحبيب الصادق ﷺ ولم يكن فى مقام الاكتراث :

ـ « حُبِّبَ إلىَّ مِنْ دُنياكم ثلاث » .

هذه صِفَةَ المحبوب لا المحب : ونَعْت المعشوق لا العاشق .

المعشوق فى الاختيار ، والعاشق فى الاضرار .

المعشوق فى التمحيص والاختبار ، والعاشق ساكن تحت مجارى الأقدار .

* * *

٢ ـ العشق .. عند (ابن العربى) [*]

(العشق موهبة)

غاية المحبة : عشق [(١)] .. فالمحبة [(٢)] : صفة عامة ، والعشق : صفة خاصة ، ومحله : سويداء القلب .

فالمحبة قد تكون كسبية .. والعشق لا يكون إلا موهبة ، وحين اشتد العشق يورث الحيرة (شعر) :

قد تحيرت فيك خُذْ بيدى يادليلاً لمن تحير فيك

وعلامة العشق : [(٣)] أن لا يُبالى يترك نفسه لأجله كما قال (الحسين بن منصور) شعر :

(*) محمد بن على بن محمد ابن عربى الحاتمى الطائي الأندلسى (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ / ١١٦٥ـ١٢٤٠م) .

(١) جاء فى هامش الأصل :

شاع عشقى فى البرايا وعلن كُن دليلى فى الورَى ياذا المنن
صح عند الناس أنى عاشق غير أن لم يعرفوا عشقى لمن
لى حبيب لست أهوى غيره لم يزل يلطف بى طول الزمن
حاضرى ما غاب عنى ساعة وهْوَ فى قلبى وسِرِّى قد سكَن
ياحبيبى بلسان العربى ولسان الفارسى محبوب من
خُذْ فؤادى ورقادى ثَمناً لك روحى لك سِرِّى والعلن
وإذا لم أفتخر بين الورَى بك يامولى الموالى فبمن
واقف بالباب أرجو كرماً أنا عَبْدٌ مستهام ممتحن

(٢) قيل من علامة المُحب لله : متابعته لحبيب الله فى أخلاقه وأحواله وأفعاله وأوامره .. لأنه لا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب فى أوامره وأفعاله وأخلاقه ـ (هامش الأصل) .

(٣) فى المطبوعة : العاشق ، ولعلها الأصوب .

اقـــــتلونى يا ثقـــاتى إن فى قـــتلى حـــيـــاتى
وحـــيـــاتى فى مماتى ومماتى فى حـــيـــاتى (١)

قـال بعض العلمـاء : المحبـة والعشـق يتولدان من الشـهوة .. وتعـالى ربُّنا عنهـا .

قلنا : المحـبة على نوعين : محـبة قائمـة بالروح ، ومحـبة تتولـد من الشـهوة . والشهوة ، صفة قائمة بالنفس .

فمتى غَلَبَتْ محبة الروح .. تُسمى عشقًا ، ومتى غلبت شهوة النفس .. تُسمى هوىً (٢) .

فالمحبـة التى تتـولد من شـهوة النفس غير المحبـة التى هى صفة قائمة بالـروح .

فإطلاق المحبة على الله تعالى هى هذه ونقول : لم تحصـل المحبـة من الشـهوة ، لأنه إذا ضَعف الجسم ، وقلَّت الشهوة : تحصل المحبة غاية ، وتَقِلّ الشهوة غاية .

---

(١) أقول : كأن معنى البيتين : أن اقتلوا هوَى نفسى ، فإن فى قتله حياة روحى ، وحياة الروح تكون في إماتـة النفس ، وكسـر حدَّتهـا ، وبذل المجـهود فى الطاعـة ، وعندمـا تموت . تحيـا الروح بذِكرِ الله تعـالى .

(٢) جـاء فى هامش الأصل : قال الشيخ الشاذلى رضى الله عنه : قال لى رجـلٍ : أوصنى ، فقلت له : لا تتخـذ المعصـية وثَنًا ، ولا الدنيـا بالحب لهـا وثنًا ، وأهجـر النفس والهوَى ، واستنصر بالله فنعم المولى ، وعليك بالتحقق فى الإيمـان ، وبالشـهود فى الإحسان ، والتزم ذلك علمـًا ، تجد المزيد حكمًا ، واستمطر منَ الله ، ولاترجو شيئًا سوى الله ، (أ إله مع الله تعالى الله عمًّا يشركون) قال : فهل تجد لذلك من أسماء الله اسمـًا ؟ فقلت له : نعـم ـ يا لله يا أول ، ياآخـر ياظـاهر ياباطن ، كما أحسنت إلىَّ أولاً ، فأحسـن إلىَّ آخرًا (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان) قال : وما الذى أحسن به إليك أولاً ؟ فقلت له : أحسن لى بأربعة أشياء : بالتوحيد ، والإيمان ، والعقل ، والبِرهان ، فكما أحسن بالإيمان أرجو أن يُحسن بالإحسانِ ، وكـما أحسن بالعقل الفرعى أرجو أن يحسن بالعقل الأصلى ، وكـما أحسن بالبرهان أرجو أن يُحسن بالعيَّان ؟ فقال : أحسنت أحسنت فوجدته يسأل ، وهو عالم .

وبواعث المحبة فى الإنسان متنوعة ، فمنها : محبة الروح ، ومحبة القلب ، ومحبة النفس ، ومحبة العقل .

أما الأولى فنوعان : حُب عام ، وحُب خاص .

فالحُب العام مفسر بامتثال الأوامر ، وهذا الحب الذى يكون من الصفات ، وفيه مدخل لكسب العبد .

وأما الحب الخاص ، فهو حُب الذات عن مطالعة الروح ، وهو الحب الذى فيه السَكْرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده ، وهذا الحب يكون من الأحوال ؛ لأنه مَحْض موهبة ، وليس لكسب فيه مدخل .

وأما محبة القلب ، فهى اختيار محبة المحبوب على كل ما عداه [1] .

وأما محبة النفس ، فهى تتولد من الشهوة ، وهى أن تؤثر حُب الدنيا على حُب الله تعالى :

وذَكَرَها الله فى سبعة أشياء : قال : ﴿ **زُيِّنَ للنَّاس حُب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المُسوّمة والأنعام والحرث** ﴾ الآية (آل عمران ١٤) .

وهى رأس كل خطيئة كما قال عليه السلام [2] .

---

(١) هذا الدعاء علَّمه الله سبحانه وتعالى « إبراهيم بن أدهم » حين سأله أن يعطيه ما يُسكّن به قلبه .. فعاتبه ربه (بقوله) : يا إبراهيم .. هل يَسكُن المشتاق دون لقاء حبيبه . فطلب المغفرة من الله وقال : علِّمنى كيف أقول : فقال : قلْ اللّهمَّ رَضنى بقضائك ، وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شُكْر نَعْمائك . انتهى ... هامش الأصل .

(٢) أى حديث « حُبّ الدنيا : رأس كل خطيئة » رواه البيهقى فى الشُّعَب مرسلاً إلى الحَسَن والدّيلمى عن علىّ - (المقاصد ١٨٢) .

فمن قتل نفسه بالمجاهدة ، اندفعت هذه المحبة عنها [1] .

وأما محبة العقل : فهى صفة يقتضيها العقل كمحبة المحسن والمنعم ، والعــدل وغيره . أ . هــ .

* * *

(١) جاء فى هامش الأصل : قال الشاذلى رضى الله عنه : من فارق المعاصى فى ظاهره ، ونبذ حُب الدنيا من باطنه ، ولزم حفظ جوارحــه ، ومراعاة سرّه ، أتته الزوائد من ربه ، ووكّل به حارسـاً يحرسه من عنده ، وجمعه فى سيره ، وأخذ الله بيده حفظاً ورزقاً فى جميع أموره ـ والزوائد ؟ زوائد العلم واليقين والمعرفة وقال رضى الله عنه : انتزع من محادثة النفس ، وإرادة الشيطان ، وطاعة الهوَى ، وحركة الزمن تكن صالحاً ، واتّق الله فى الخطرة والهمّة والفكرة وحركة السرّ تكن صديقاً ، وإن تكرر عليك شيء من ذلك ، فاهجر الأسباب والأوطان والإخوان ، ومواضع الفتن تكن مهاجراً ، وإن واقعت شيئاً من ذلك فتب إلى الله واستغفره والجأ إليه ، واستغث به تكن مؤمناً ، واتخذ الطهارة والصوم ، والصبر ، والذّكر وتلاوة القرآن والتبرى من الحول والقوة سلاحاً تكن سالماً ، وإذا غلبت فاتخذ الإيمان حصناً ، وإن دخل عليك فسلّم الأمر لله ، وعليك بالتوحيد والإيمان والمعرفة والمحبة لله ، وغرّق الدنيا فى بحر التوحيد قبل أن تغرقك ... هامش الأصل المعتمد .

ابن الفارض (*)

(سلطان العاشقين)

* يقول دكتور « أحمد الشرباصى » : (١٩١٨ ـ ١٩٨٠ م) :

ـ « ابن الفارض » هو ـ عند الصوفية ـ سلطان العاشقين ، وإمام المحبين ، وفى الهوى قدوة المقتدين ، فهو السابق على من تقدم وتأخر ، كما قال وقالوا ، وهو العَلَم المعروف الذى يشار إليه هنا بالبنان ولاعجب فهو القائل :

قُل للذين تقدموا قبلى ، ومن ... بعدى ، ومن أضحى لأشجانى يرى
عنّى خُذوا ، وبى اقتدوا ، ولى اسمعوا ... وتحدثوا بصبابتى بين الورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرٌ أرقُ من النسيم إذا سَرَى
وأباح طرفى نظرة أملتها ... فغدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عنى مُخبرا
فأدر لحاظك فى محاسن وجهه ... تلقَ جميع الحُسن فيه مصورا
ولو أن كل الحسن يكمل صورة ... ورآه كان مهللاً ومكبرا

ولقد كان « ابن الفارض » يقرر لنفسه هذه المكانة ، وينوه بها معتزا بسبقه فيها ، وإن رآه نقاده مغروراً بها ، فهو يقول :

كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بَكل من فى حماك
فُقْت أهل الجمال حُسناً وحسنى ... فبهِم فاقة إلى معناكا
يُحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاك تحت لواكا

(*) (٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ / ١١٨١ ـ ١٢٣٤ م) .

وكما أن « ابن الفارض » يعدونه (سلطان العاشقين) فهو أشعر المتصوفين ، وكان الشيخ « مصطفى عبد الرازق » ـ (١٨٨٥ ـ ١٩٤٧ م) ـ يرى أن « ابن الفارض » هو الصوفى المصرى الأول بلا منازع ، ورأس شعراء الصوفية من العرب .

ولقد اختلفت فى « ابن الفارض » الآراء والأقوال ، فبعضهم ينسبه إلى الكفر ، والقول بالاتحادية ، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف فى الثناء عليه ، فمن يكون « ابن الفارض » ؟ .

هو « شرف الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن على بن المرشد بن على الحموى المصرى ، المعروف بابن الفارض » .. لأن أباه كان يعمل فارضاً ، أى يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدى الحكام ، فغلب عليه لقب « الفارض » وعُرف ولده بابن الفارض .

ويروى أن الوالد قَدِم من حماة بالشام إلى مصر فاشتغل بها ، وتقلب فى المناصب ، حتى أرادوه قاضياً للقضاة ، وهو منصب عظيم ؛ ولكنه رفض واعتزل الناس متعبداً لله فى قاعة الخطابة فى الجامع الأزهر ، وظل على تلك الحال حتى لحق بربه تبارك وتعالى ، وكان لهذا الوالد أثر كبير فى نفس « ابن الفارض » ويصبوره « ابن الفارض » نفسه بأسلوبه فيقول :

ـ « كنت فى أول تجريدى أستأذن والدى ، وأطلع إلى وادى المستضعفين بالجبل الثانى من المقطم وآوى فيه ، وأقيم فى هذه السياحة ليلاً ونهاراً ، ثم أعود إلى والدى لأجل بره ومراعاة قلبه ، وكان والدى يومئذ خليفة الحكم للعزيز بالقاهرة ومصر المحروستين ، وكان من أكابر أهل العِلْم والعمل ، فيجد سروراً

برجوعى إليه ، ويلزمنى بالجلوس معه فى مجالس الحكم ومدارس العلم ، ثم أشتاق إلى التجريد فأستأذنه وأعود إلى السياحة ، وما برحت أفعل ذلك مرة بعد مرة ، إلى أن سُئل والدى أن يكون قاضى القضاة فامتنع ، ونزل عن الحكم ، واعتزل الناس ، وانقطع إلى الله تعالى بقاعة الخطابة فى الجامع الأزهر إلى أن توفى » .

وقد ولد « ابن الفارض » سنة ست وخمسين وخمسمائة ، أو سنة ستين وخمسمائة ، أو سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وأرجح الروايات أنه وُلد فى الرابع من شهر ذى القعـــدة سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وهذا يوافق (٢٢ مارس سنة ١١٨١) ميلادية .

و « ابن الفـارض » مصرى المولد والنشـأة والوطن ، وكان عميـق الحب لمصر ، ينؤ بها ، ويتغنى فيها ، ومن ذلك قوله :

وطنى مـــصـــر ، وفـــيـــهـــا وطرى ولعـينى مـشـتـهـاها مـشـتـهـاها
ولنفـــسى غـــيـــرها أن سكنت يا خليلى ســـلاها مـــا ســـلاها

ولقد عاش فى عصر الأيوبيين ، وفيه شاع مذهب أهل « السُّنَّة » ، وصار فيه للصوفية مكانة ، فهو عصر يسوده المذهب السُّنِّى ، والاتجـــاه الصـوفى ، والنزعة الشعرية .

ولقد تعاونت على تكوين شخصية « ابن الفارض » بيئات ثلاث : الشام ، وهى أصله ومنبت أسـرته ، والشـام تغلب على أهله رقـة الطبع ، ومصر مكان مولده ، ونشأته ، ولمصر مكانتها ، والحجاز وفيه أقام « ابن الفارض » خمسة عشر عاماً ، وللحجاز نفحاته .

ولقد نشأ « ابن الفارض » عفيفاً متصوفاً ، زاهداً متعبداً ، ورعاً متديناً ، درس الحديث ، وفقه الشافعية ، وكان يحب الخلوة والعزلة والسياحة ، وكثيراً ما كان يأوى إلى ناحية فى جبل المقطم ، أو فى أحد المساجد المهجورة فى القرافة .

وحينما سلك « ابن الفارض » طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية والتجريد ، وأخذ يسيح فى جبل المقطم ، ورحل إلى مكة ، وساح فى أوديتها ، وأكثر مجاورة الكعبة والطواف والتعبد فى المسجد الحرام ، وواصل المسير فى سبيل الرياضة والمجاهدة ، وأخذ يزداد من العلم والعمل ، والتذوق واستقامة السلوك ، وكانت له أحوال ومقامات ، وفراسة ومكاشفة ، وكان لذلك كله أثره فى ترقيق خُلُقه ، وتهذيب نفسه ، وتصفية طبعه ، مما فَجَّر فى قلبه ينابيع الشوق الروحى والحب الإلهى ، وتكونت عنده مجموعة من الشمائل والفضائل ، مع فصاحة عبارة ودقة إشارة ، وتوقد عاطفة وتألق وجدان ، حتى يصور لنا صورة من ذلك فى قوله :

« حصلت منِّى هفوة ، فوجدت مؤاخذة شديدة فى باطنى بسببها ، وانحصرت باطناً وظاهراً حتى كادت روحى تخرج من جسدى ، فخرجت هائماً كالهارب من أمر عظيم فعله وهو مُطالب به ، فطلعت الجبل المقطم ، وقصدت مواطن سياحتى وأنا أبكى واستغيث واستغفر ، فلم يفرج مابى ، وقصدت مدينة مصر ، ودخلت جامع « عمرو بن العاص » ، ووقفت فى صحن الجامع خائفاً مذعوراً ، وجددت البكاء والتضرع والاستغفار ، فلم ينفرج ما بى ، فغلب علىَّ حال مزعج لم أجد مثله فصرخت وقلت :

من ذا الذى ما ساء قط ومن له الحسنى فقط ؟

فسمعت قائلاً يقول بين السماء والأرض ، وأسمع صوته ولا أرى شخصه :

« محمد الهادى الذى عليه جبريل هبط »

ويصور لنا « ابن الفارض » فى شعره كيف أفلح فى مقاومة شهوات دنياه ووساوس شيطانه ، وكيف نجح فى قهره هوى نفسه ، فيقول لنا فى شعره :

ولا تتبع من سوّلَت نفسه ... له فصارت له أمارة واستمرت
ودع ما عداها وعد لنفسك من ... عداها ، وعد منها بأحسن جنة
فنفسى كانت قبل لوامة ، متى ... أطعها عصته أو أعصى كانت مطيعتى
فأوردتها ما الموت أيسر بعضه ... وأتعبتها كى ما تكون مريحتى
فعادت ومهما حملته تحملته ... منّى ، وإن خففت عنها تأذت
وكلفتها ، لا بل كفلت قيامها ... بتكليفها حتى كلفت بكلفتى
وأذ هبت فى تهذيبها كل لذة ... بأبعادها عن عادها فاطمأنت
ولم يبق هول دونها ما ركبته ... وأشهد نفسى فيه غير زكية

ويروون لى سبب سفره أنه دخل لمدرسة السيوفية ذات يوم ، فوجد رجلاً شيخاً بقالاً على باب المدرسة ، يتوضأ وضؤا غير مرتب ، غسل يديه ، ثم غسل رجليه ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل وجهه ، فقال له « ابن الفارض » : يا شيخ أنت فى هذه السن على باب المدرسة بين فقهاء المسلمين ، وتتوضأ وضوءا خارجاً عن الترتيب الشرعى ؟ .

فنظر الرجل إلى « ابن الفارض » وقال له : يا عمر ، أنت مايفتح عليك هنا وإنما يفتح عليك بالحجاز فى مكة شرفها الله تعالى ، فأقصدها فقد آن لك وقت الفتح .

فدهش « ابن الفارض » من هذا القول ، وردّ على الشيخ بأن المسافة بعيدة بينه وبين مكة ، وأنه لايجد مايركبه ولا من يرافقه فى غير أشهر الحج .

وسافر « ابن الفارض » إلى الحجاز ...

وكانت مدة إقامة « ابن الفارض » بالحجاز ممتدة من سنة ثلاث عشر ، وستمائة إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وكانت عودته إلى مصر قبل وفاته بأربع سنوات .

وقد جمع « ابن الفارض » بين شعب ثلاث : الشاعرية ذات الحس الدقيق ، والشعور الرقيق ، والصوفية ذات الذوق والرياضة والمجاهدة ، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التى تستبد بها النزعة الروحية التى يصعب علينا تحديدها أو تقييدها .

ولم يخلف لنا « ابن الفارض » آثاراً مكتوبة غير ديوانه الشعرى ، كما يذكر ذلك الدكتور « محمد مصطفى حلمى » ، وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب على أنه كغيره من دواوين الشعر الغَزَلى البشرى ، وينظر إليه أهل التصوف على أنه ديوان شعر صوفى نظمه صاحبه فى الحب الإلهى ، ويعدونه (**سلطان العاشقين**) الصوفيين غير منازع وإمام المحبين الإلهيين غير مدافع ؛ ولذلك قال عنه « المناوى » (**٧٩٨ ـ ٨٧١ هـ**) أنه الملقب فى جميع الآفاق بسلطان المحبين والعشاق ، المنعوت بين أهل الخلاف والوفاق بأنه سيد شعراء عصره على الإطلاق .

* * *

ومن الواضح الجلى أن شعر « ابن الفارض » تسيطر عليه عاطفة الحب ، سواء أكان حباً حسياً ، أم حباً روحياً .. وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حُب « ابن الفارض » كان فى عهد شبابه حباً حسياً ، فقد كان فى شبابه مضرب المثل فى نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر ؛ ولكنه فى عهد الكهولة انتقل إلى

الحب الروحى الإلهى ، ومما يقوى هذا الاستنباط أن بعض الغزل فى شعر « ابن الفارض » يصعب تأويله على أنه غزل روحى ، ومن أمثلة ذلك قوله :

ولما تلاقينا عشاءً ، وضمّنا ... سواء سبيلى دارها وخيامى
وملنا كذا شيئاً عن الحى ، حيث لا ... رقيب ، ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدى وطاء على الثرى ... فقالت : لك البشرى بلثم لثامى
فما سمحت نفسى بذلك غيرة ... على صونها منى لعز مرامى
وبتنا كما شاء اقترابى على المنى ... أرى الملك ملكى والزمان غلامى

ولاريب ـ مع هذا ـ فى أن سرّ الإقبال على شعر « ابن الفارض » فى كثير من الأحيان هو مافيه من معان رمزيه جعلت الدكتور زكى مبارك (١٨٩٥ ـ ١٩٥٢ م) فى كتابه « التصوف الإسلامى » يقول : إنه لولا هذه المبانى الرمزية لانصرف الناس عن شعر « ابن الفارض » ، ورأوه أخف من أن يُنصَبْ له ميزان ، والعناية بهذا الشعر كانت فاتحة فى وزن المعانى بعد أن ظل الناس طويلاً يحرصون قبل كل شىء على وزن الألفاظ ، فابن الفارض من جهة المعانى فحل من الفحول ، حيث استطاع الجمع بين الحقيقة والخيال ، والحقيقة عنده هى الصورة الروحية ، والخيال هو الصورة الحسية التى يرمز بها إلى المعنويات ، وابن الفارض يمتاز بقوة الروح حتى روى أنه أُلهم فى منامه هذين البيتين :

وحياتى أشواقى إليك ... وحرمة الصبر الجميل
ما استحسنت عينى سواك ... ولا صبوت إلى خليل

وهما بيتان على جانب عظيم من القوة عند من يؤثرون المعانى ، وهل فى الحُب أشرف من توحيد المحبوب ..

إن الشاعر يُقسم بأشواقه ، وبحرمة الصبر الجميل . أن عينه ما استحسنت سوى محبوبه ، وأن قلبه ماصبا إلى محبوبٍ سواه .

والنفس قد تلهج فى عالم الأحلام بمعانٍ شتى ، فليس من الكثير أن يلهج « ابن الفارض » فى نومه بالمعانى الشعرية ؛ ولكن الكثير أن يتفق لعقله الباطن ألا يتحدث بغير توحيد المحبوب ، وتلك شارة الصدق ، والصدق هو الدعامة الأولى لقوة الروح .

ولقد تحدث « ابن الفارض » كثيراً عن الجمال فى شعره ، وهو يقصد ـ فى حقيقة أمره ومذهبه ـ الجمال المطلق الذى يفيض منه كل جمال ، فلقد أحب الذات الإلهية التى تعالت عن الشبيه والنظير ، فعنها صدر كل جمال ، ولا يبلغ أى جمال مستوى جمالها ، فهو لا ينُال ولا يصُال ، أليس هو الذى يريدنا على أن نفهم عنه تخلصه ـ فى حبه ـ من قيود الحس ، وتجرده عن شهوات النفس ، وتجاوزه ماوراء الوجود الحسى مما هو أسنى وأنقى فيقول فيما قال :

وصرح بإطلاق الجمال ولاتقل بتقييده ميلاً لزخرف زينة
فكل مليح حسنه من جمالها معار له بل حسن كل مليحة
بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليلى أو كثير عزة
فكل صبا منهم إلى وصف لبسها بصورة حسن لاح فى حسن صورة
وماذاك إلا أن بدت بمظاهر فظنوا سواها وهى فيها تجلت

والكثير من شعر « ابن الفارض » ظاهرة عاطفة الحب الإنسانية ، وغزل بين إنسان وإنسانة ، وتصوير عميق لمعان دقيقة خفية ينطوى عليها قلب المحب المستهام وباطنه ـ كما يقول مؤيدوه ـ شعر صوفى يدور حول الحب الإلهى ، فيسبح فى طوفان من الدقائق والرقائق التى قد تتبدى معانيها من خلال أستار ألفاظها حيناً ، وقد تتخفى وراء تلك الأستار أحياناً أخرى .

وحُب « ابن الفارض » حُب عفيف مرهف آسر ، ينتهى بصاحبه إلى الشهادة كما يعبر صاحبه ، وكأنه يرمز إلى مارووه عن « عبد الله بن عباس » – رضوان الله عليهما – وهو قوله (ﷺ) : « **من أحب فعف فكتم فمات مات شهيدا** » .

إن « ابن الفارض » يقول فى هذا المجال :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل	فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خاليًا فالحب راحته عنا	وأوله سقم وآخره قتل
ولكن لدى الموت فيه صبابة	حياة لمن أهوى علىّ بها الفضل
نصحتك علمًا بالهوى والذى أرى	مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيدًا فمت به	شهيدًا وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت فى حبه لم يعش به	ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

أما (عشق) شاعرنا فهو الذى يسمو بالنفس الإنسانية إلى أقصى ماتستطيع من صفاء ونقاء ، يجردها عن علائقها الحسية ، ويحررها من قيودها المادية ، ويطهرها من هواجسها الخفية فإذا هى روح لطيفة خالصة ، قد تشهد من الجمال المطلق مالا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

لقد قدمنا ما يكفى ، أو ما هو فوق الكفاية من تصوير محبى « ابن الفارض » ومؤيديه والمدافعين عن اتجاهه ، وقد يكون من الإنصاف أن نعرج على ناقديه الذين نراهم يأخذون من كلام « ابن الفارق » وشعره مايجعلهم يقررون أنه يقول بوحدة الوجود ، ويصفونه بأنه عدو للحق ، وأنه مارق عن الصراط ، ومن أشد الناقدين لابن الفارض الحاملين عليه ، المحذرين من آرائه وأفكاره ، الإمام « برهان الدين البقاعى الشافعى » المتوفى سنة خمس وثمانين وثمانمئة ، فهو ينقل أن الذين رموا « ابن الفارض » بالزندقة نحو أربعين عالما ، هم من دعائم الدين من عصره إلى عصر البقاعى .

فمن أهل عصره سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعى ، والحافظ الفقيه الأصولى « تقى الدين بن الصلاح الشافعى » ، والإمام الفقيه المحدث

« قطب الدين القسطلاني الشافعي » الصوفي ، والإمام « نجم الدين أحمد بن حمدان الحنبلي » ، « وأبو علي عمر بن خليل السكوني المالكي » ، والشيخ « جمال الدين بن الحاجب المالكي » ... إلخ .

ورأى البقاعي في شعر « ابن الفارض » رأيًا يحسن بنا أن نتركه هو بنفسه يعبر عنه بلغته ، لنرى كيف أتى البقاعي هذا الشعر من قواعده ، فلم يبق له تلك الحلاوة التي طالما حدثنا عنها المؤيدون لسلطان العاشقين ، يقول « البقاعي » ما نصه :

ـ « وأما المحامون له .. فإنهم داعون إلى شاعر لم يؤثر عنه قط شيء غير ديوان شعر لم يمدح النبي ﷺ فيه بقصيدة واحدة ؛ بل هو كفر وضلالة وخلاعة وبطالة ، وقد علم ذم الله وذم رسوله ﷺ للشعر والشعراء ، إذا كان حالهم مثل هذا كما قال تعالى :

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [1] .

وقال النبي ﷺ ـ كما رواه الستة عن ابن عمر رضي الله عنهما :

ـ « **لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه ـ يفسده ـ خير من أن يمتلىء شعراً** » وذلك إذا انفرد بالشعر كهذا الرجل ـ يعني ابن الفارض ـ فإنه ليس له شيء ينفع الدين أصلا ، وليس له من الشعر إلا ما عادى به الإسلام وأهله ، وأذاهم غاية الأذى ، وأوقع بينهم العداوة والبغضاء ؛ لأنه ملأه كفراً

---

(١) سورة الشعراء ـ الآيات : ٢٢٤ – ٢٢٧ .

وخـلاعة ، وصداً عن الدين وشـناعة ، فقـد حـاد به الله ورسـوله ﷺ ، وقـد قال تعـالى :

﴿ لاتجـد قـوماً يؤمنـون بالله واليوم الآخـر يـوادون من حـاد الله ورسـوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ [1] .

وقد توفى ابن الفارض (يوم الثـلاثاء الثانى من شـهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ـ الموافق ٢٣ يناير سنة ١٢٣٤ م) ودفن بالقرافة بسفح المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض ، وإلى هذا العارض الذى دُفن تحته ابن الفارض أشعار على سبط الشاعر فى قوله :

جُزْ بالقـرافـة تحت ذيل العـارض ... وقُل السـلام عليك يا ابن الفـارض
أبرزت فى نظم السلوك عـجـائبـا ... وكـشـفت عن سـر مـصـون غـامض
وشـربت من بحـر المحـبـة والولا ... فـرويت من بحـر مـحـيط فـائض

* * *

(١) سـورة المجـادلة ـ الآية ٢٢ .


فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

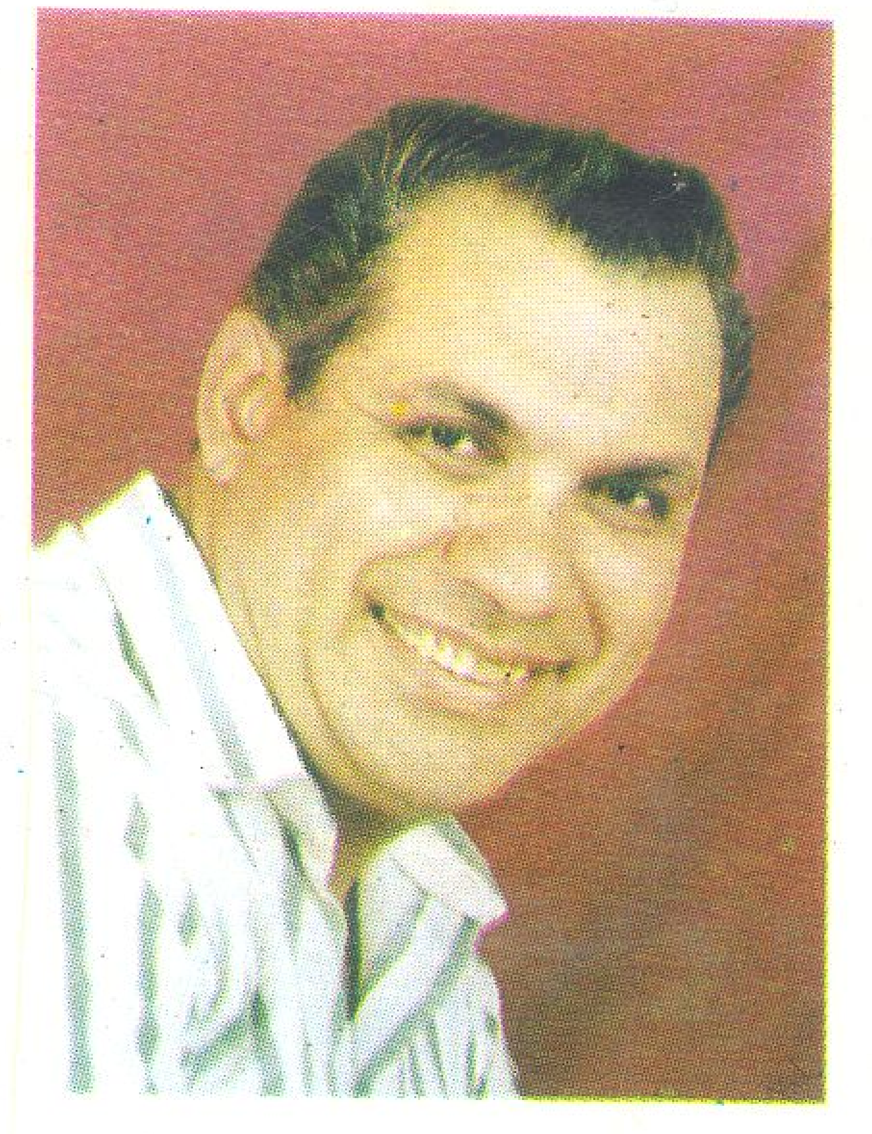
صفحة





ت : ٩٣٢٧٠٦

العشق .. فى آراء الفلاسفة والحكماء



❑ العشق هو إفراط المحبة ، وهو معنى من المحبوب يقع به العشق وهو الذى يوقد نار الشوق والوجد الذى فى القلب .. ولقد كنى فى القرآن بشدة الحب فى قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ .. وهو قوله تعالى : ﴿ قد شغفها حباً ﴾ أى حبها « يوسف » على قلبها كالشغاف ، وهى الجلدة الرقيقة التى تحتوى على القلب ، فهى ظرف له محيطه .

❑ وهذا الكتاب نستعرض فيه آراء الفلاسفة والحكماء فى العشق .. فنتعرف عليه فى رسالة « الرئيس ابن سينا » الذى يذكر فيها حقيقة سريان قوة العشق فى كل واحد .. ووجود العشق فى الجواهر .. ووجوده أيضاً فى الكائنات النباتية والجواهر الحيوانية .. كما يذكر لنا عشق الظرفاء والفتيان للوجوه الحسان ..

❑ كما سنتعرف فيه على العشق فى حياة « ابن زيدون » .. وعن ماهية العشق فى رسائل جماعة « إخوان الصفا » .. وعن الجمال والعشق الكامل عند « شهاب الدين السهروردى » .. وموهبة العشق والعشاق عند « محيى الدين بن عربى » .. وسلطان العاشقين « ابن الفارض » .. وصفات العشق لدى «الفضل ذو الرياستين» .. والعشق والنساء عند «الجاحظ» .. وعن العشق وعيوب النفس فى آراء « أبو بكر الرازى » ... وغيرهم .

❑ وفى هذا الكتاب سنلقى الضوء على كافة أنواع العشق وفروعه وآثاره وأثره فى الأنفس ، وما يوحيه من سحر المنطق ، وبدائع الأفكار حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية كثيراً ما يحفل بمآثره ونوادره .



دار الامين

DAR AL AMEEN

طبع
نشر
توزيع

١٠ شارع بستان الدكة من شارع الألفى - القاهرة ت : ٩٣٢ ٧٠٦

١ ش سوهاج من ش الزقازيق خلف قاعة سيد درويش - الهرم - الجيزة